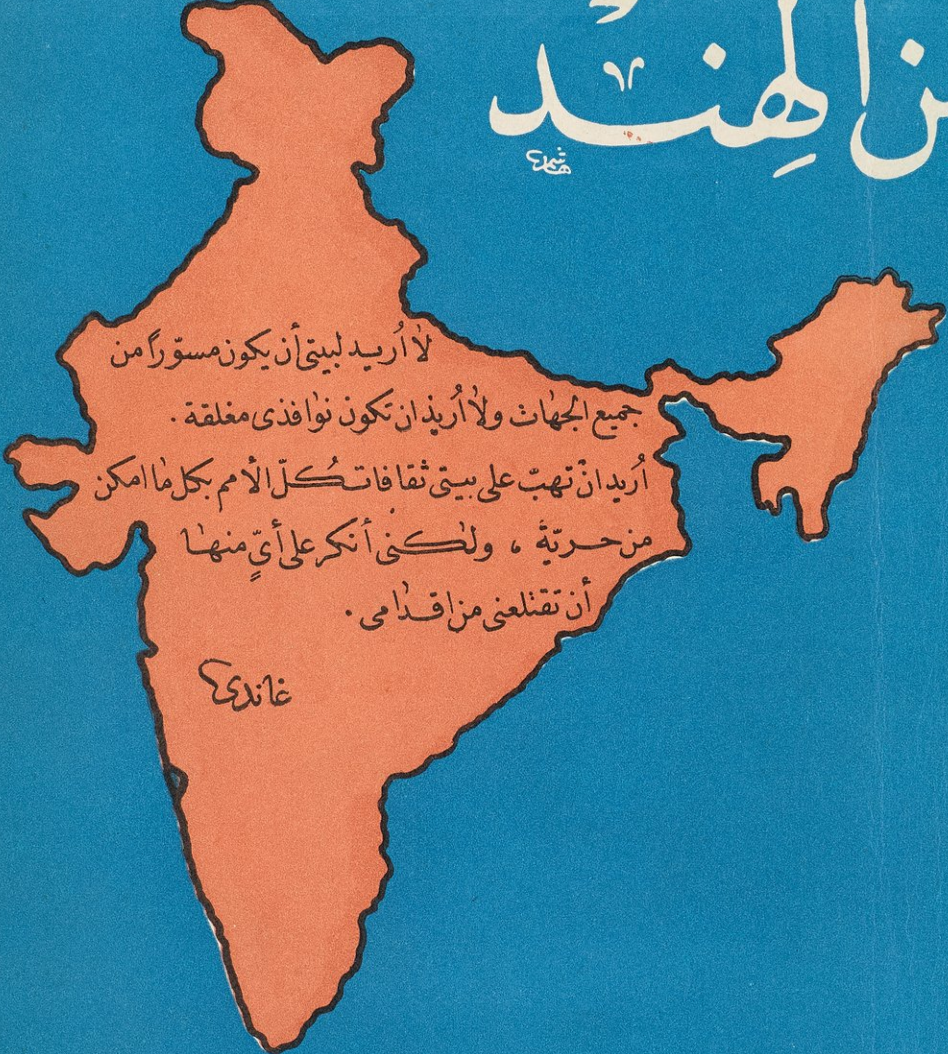
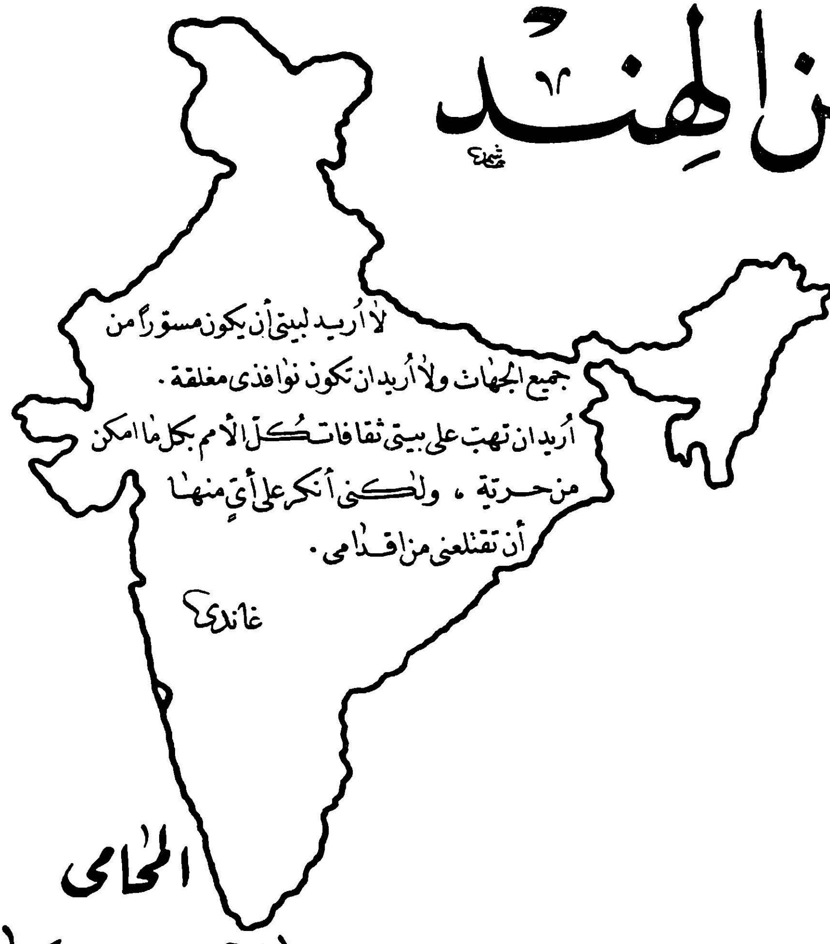
رسائل من الهند



المحامي
ناجي جواد

رائد

من الهند

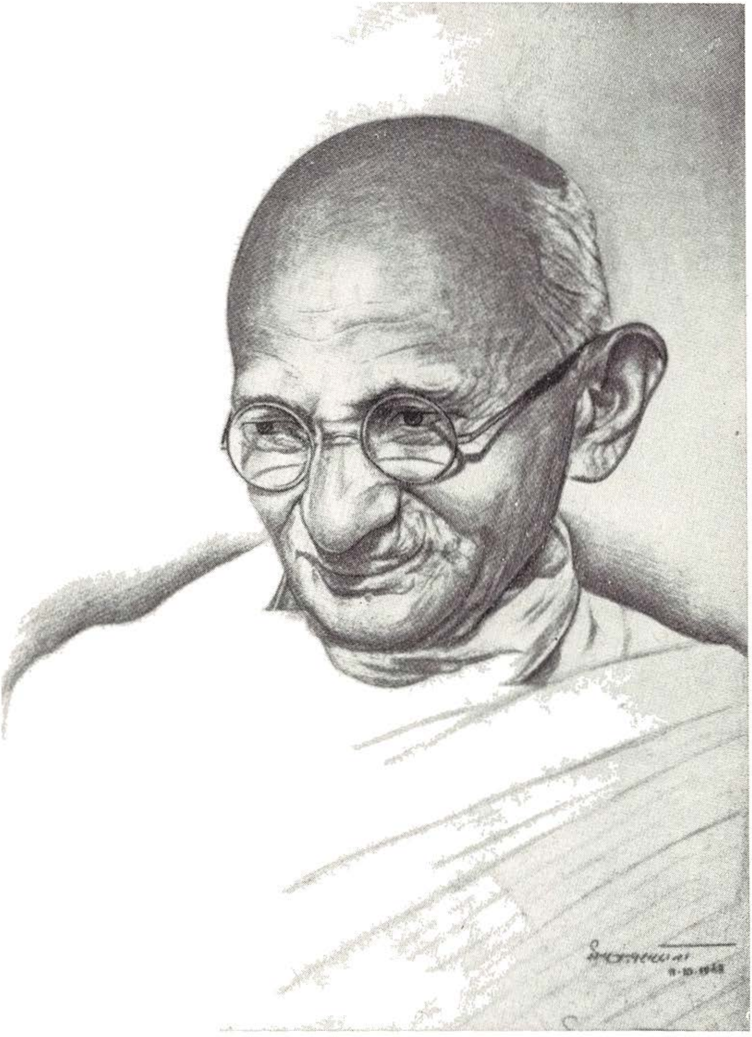


لا أريد لبيتي أن يكون مسوراً من جميع الجهات ولا أريد ان تكون نوافذي مغلقة.
أريد ان تهب على بيتي ثقافات كل الأمم بكل ما امكن من حرية ، ولكني أنكر على أيٍ منها أن تقتلعني من اقدامي.

غاندي

المحامي

ناجي جواد



الى الانسانية الحقة المتمثلة في روحيـة غاندي وتعاليمه ،
أهـدي هذه الصحائف ...

رسالة ... لا مقدمة !

بقلم : الاديب الكبير الاستاذ

حسين مروه

أخي ناجي

اذا كنت تحسبني أكتب هذه السطور لتكون مقدمة « لرسائلك »، كما تكون المقدمات عادة ، فأنت تظلمني .

ان شرط ـ المقدمة ـ أن تكـون ذات جانب موضوعي ، ان لم تكن موضوعية محضا .. وأنت تعلم أن ـ الموضوعية ـ في أدب البحث أو الدراسة أو ـ التقديم ـ لا يخلو من طبيعة ـ جليدية ـ في اكثر الاحيان ، بل في أفضل شروطه .. فالادب من هذا الطراز كلما ابتعد عن ـ منطقة الذات ـ أي دفء العاطفة وحرارة القلب ، كان أقرب الى حقيقته ، وأجمع لعناصر وجوده ..

فهل تريدني ، اذن أن اكتب عنك ، او عن ـ رسائلك ـ هذه مـن غير عاطفة ، من غير قلب ؟ هذا ما لست استطيعه .. فدعني أكتب عنك وعن ـ رسائلك ـ بقلبي وعاطفتي ، لانني لا أملـك أن أخرج منهما الى ـ جليد ـ الموضوعية .. أي انني لا املك أن انتزع نفسي ، وأنا اكتب هذه السطور ، من نفسي ذاتها ، من شعوري ـ وذاتيتي ـ ...

ان لك في ـ ذاتي ـ اكثر من مكان واحد ، واكثر من منبع يفيض بالحب صافيا هادرا ، ويشرق بالضياء حارا متوهجا . و ـ رسائلك ـ هذه بعينها هل نبعت الا من قلبك وعاطفتك حتى ما جاء فيها من جانب عقلك المثقف ، هل تستطيع أن تقول انه لم يستمد الحياة والاشراق من ينبوع حبك ، مـن أبوتك لهيفاء العزيزة ، من مشاعر الانسـان الطيب فيك ، من لهب حقدك المقدس على الاشرار ؟ ..

ارجع الى مدخل هذا الكتاب من جديد .. وأقرأ لنفسك ما كتبت في هذا المدخل من روابط تاريخية وثقافية بين شعبك وشعب الهند ، بين

أرضك الطيبة وأرض الهند العريقة ·· ألا ترى القضية عندك ، ليست قضية رغبة عقلية دفعتك أن تكتب هذه ـ الرسائل ـ لغرض البحث المجرد ، أو لغرض الكشف الخالص عن حقائق تاريخية وملاحظات اجتماعية موضوعية ، وانما القضية عندك أمر اخر وأمرك الآخر هذا ، هو انك أب محب وانك انسان يشعر ، وانك مواطن اغترب عن وطنه ، وأحس هذا الوطن في حنين قلبه واحسه في حركة وجدانه وهو يتفاعل مع ناس اخرين ، ومع طبيعة اخرى ، ومع أشياء كثيرة منها الجديد الغريب ، ومنها العادي الاليف ؟ ··

بل ، تعال نقرأ معا ، أنت وأنا هذه المرة ·· تعال نقرأ هذه ـ الرسائل ـ من أولها الى اخرها فهل تراك كتبت منها حرفا واحدا الا وفي حرفك هذا صورة ـ هيفائك ـ ، وصورة ـ عراقك ـ ، وصورة طفولتك ، وصور أخرى تتدافع وتتزاحم في ـ ذاتك ـ يسوقها ـ شيء ـ ثابت في أعماقك ما كنت تستطيع يومئذ أن تبوح به الا تلميحا ، أو رمزا ، او ايماء ·· ـ شيء ـ هو القلق فيك منبعث من ذلك ـ القلق الكبير ـ في مواطنيك جميعا يومذاك ··

لعلك الان ، وقد تغير الحال في وطنك ، لاتتعرف ذلك القلق الا من وراء الامس الداثر ، فقد محقت الثورة الظافرة ذلك ـ القلق الكبير ـ ، ومسحت عن صدور المواطنين الطيبين آثاره البشعة ، وأحلت مكانه طرازا آخر من القلق الذى يدفع للبناء والابداع ، هو قلق المحبة ، وقلق الاعتزاز بالثورة ، وقلق الرغبة العارمة في صيانة هذه الثورة ، في حمايتها من كيد الكائدين ، في دفعها الى القمم الشامخة ساحقة كل العقبات ·

كان في أعماقك يومئذ ـ شيء ـ يكاد لا يكشف لك عن وجهه صريحا واضحا وتكاد لا تعرفه بحدوده وسماته كما هو ، ولكنك كنت تحسه ، وكنت تتعذب به ·· هكذا كان في نفوس مواطنيك جميعا ، وهكذا كان في احساس شعبك كله ، الا أولئك الذين كانوا يلقون بأنفسهم في جحيم المعركة ، وأولئك الذين كانت أجسادهم حطبا للنار الموقدة · [illegible]هم وحدهم كانوا يعرفون أين يكمن ذلك ـ الشيء ـ من نفوسهم و[illegible]نا ، ومن أين أتى ، والى أين سيكون بعد ··

كل ما كتبت في ـ رسائلك ـ هذه ، انما صدر ـ في اعت[illegible]دي ـ من هناك ·· من ذلك القلق الشريف الكامن يومئذ في ـ ذاتك ـ [illegible]مواطن

شريف، وكأب محب، وكانسان يحترم انسانيته ، وكمثقف يؤمن بحق الحرية والعدالة والسعادة لوطنه وشعبه ، وقد حرم العهد الداثر وطنه وشعبه هذا الحق الاقدس ٠

من هذا المصدر كانت ـ رسائلك ـ ٠ وبعين ذاتك ـ تلك كنت تنظر الى ـ هيفائك ـ والى ـ عراقك ـ ، والى الناس والارض والحياة والكون في وطنك وخارج وطنك ٠٠

والان ، وقد انقضى عهد ـ القلق الاسود ـ كله ، واستبدلت به الثورة الظافرة عهد ـ القلق الابيض ـ الخلاق ، أرى أن ـ رسائلك ـ التى نقرأ هنا ، تصح أن تكون تاريخا أمينا من تاريخ ذلك القلق الذى كنا نحترق به جميعا ٠٠

حسين مروة

تمهيد

لا يتضمن هذا الكتاب دراسة عن الهند بمعناها العلمي الواسع .. انما هو مجموعة مشاهدات لاحظتها بنفسي وانطباعات أوحتها الاحاديث التي ألقيت اليّ من بعض الاصدقاء الهنود الثقات .

بعثت بها كرسائل لابنتي هيفاء يوم كنت في الهند عام ١٩٥٥ ، وعند عودتي لبغداد شجعني بعض الادباء على نشرها مدللين برأيهم على ما تربطنا بالهند من روابط تأريخية عريقة ، وما تجمعنا من مصائب في الماضي تجرعنا كؤوسها دهاقا من يد الغزاة القساة والمستعمرين العتاة ، والى نور الحرية التي انطلق به شعبانا في الحاضر والتعاون والتكاتف الودي للسير بقافلة الشرق نحو مشرق النور .

فنشرت قسما منها في جريدة البلاد الغراء يوم كانت الصحافة والادب يخنقهما الاستعمار وأعوانه بأساليبه الرجعية لذا جاءت رسائلي رمزية ، ولم أحاول أن أبدل الرمز بالتصريح رغم اشراق نور الحرية الفكرية بانطلاقة ١٤ تموز .

وغايتي من عدم التحريف والتبديل في فصول الكتاب هو أن أبقى عليه كنموذج لصفة الادب السائد في ذلك العصر الرجعي ولاسجل صورة للكبت الادبي في تلك الفترة المظلمة .

الهند
في موكب التاريخ

لقد تمثلت الهند لخيال الامم قاطبة بانها كنز ضم كل حجر ثمين نادر وأرض تنبت كل لذيذ غريب وسماء يحلق بها كل طائر غريد ذي ريش ملون جميل .

فهي كغادة حسناء يطمع بجمالها كل ذي مال وسلطان ، فأضحت الهند عرضة للغزوات المتكررة منذ قديم الزمان ، وكان الغازى يطمع في خيراتها فاذا ما دخلها واستقر بها راح يستغلها استغلالا بشعا جشعا .

ولما علم الاسكندر بأن منطقة البنجاب في الهند منقسمة الى عدة دويلات مستقلة متنافسة فيما بينها عزم على فتح الهند لكي يصبح سيد آسيا ، فغزاها عام ٣٢٧ قبل الميلاد وكانت نواة هذا الجيش من الاغريق وسياجه من الفرس وعيونه من الهنود .

فعبر نهر السند وخضع له ملك كشمير ، وكان من نتائج هذه الحملة أن اوصلت أوربا بالهند لاول مرة .

وفي خلافة الوليد بن عبدالملك بن مروان ولى الحجاج اقليم (فارس) للقائد العربي الشهير محمد بن القاسم الثقفي .

فعقد جيشا قوامه ستة آلاف جندي لغزو الهند عام ٥٨ هجرية فراح الجيش يحتل المدن التي يصادفها في زحفه حتى اشتبك مع الهنود

في معركة تدعى (الديبل) وهي مدينة تقع على نهر السند وحولها خندق ، فأمر القائد العربي رميها بالمنجنيق فأصيب هيكل اليد (بوذا) فذعر أهلها وهرب مليكها وتم فتحها عنوة ودخلها منتصرا •

فأخذ المسلمون يختطون بها دورهم وبنوا لهم مسجدا ثم توغل البطل الظافر في البلاد فاستولى على أقطار أخرى بالصلح والتفاهم على أن يعامل أهلها معاملة الذميين وأن لا يتعرض لهياكل البوذيين •

ونستطيع أن نقرر بأن فتح الهند على يد القائد العربي محمد الثقفي كان بدءا لانتشار الدين الاسلامي والثقافة الاسلامية في تلك الربوع •

وفي أوائل القرن الحادي عشر غزا المسلمون الهند بقيادة محمود الغزنوي ، ولم يزحف هذا القائد بجيشه القوى الا حينما تأكد بأن الهند منقسمة بين أمراء كثيرين متحاسدين متفرقين •

وكان الفتح الذى تم على يد محمود ذا طابع ديني سياسي اذ كان محمود مسلما راسخ العقيدة تواقا الى رفع كلمة الدين ومبشرا بالشريعة السمحاء ، لذا راح يعلن في كل مكان انه ناشر لدين العرب وحضارتهم حتى أنعم عليه خليفة بغداد بلقب (يمين الدولة) •

وكانت تتمتع الهند حين توغل جيش المسلمين بها بما لا عهد لها بمثله من الثراء واليسر ، ففيها الذهب والياقوت والزمرد والماس •

ويحدثنا التاريخ بان تيمورلنك أغار على الهند عام ١٣٩٨ فسلب دلهي وتغلغل في الهند كالاعصار ثم عاد الى بلاده غانما مخلفا بعده الهند في فوضى واضطراب •

ولم يكتب للهند الاستقرار طيلة هذه الفترة التأريخية الا في

عهد الملك الحكيم أكبر اذ حاول هذا الملك المسلم أن يصهر الهندوس والمسلمين في بوتقة واحدة وان يقتل روح التفرقة ويذيب النعرات الدينية التي جرت ولا زالت الويلات على الهند ومكنت الاجنبي دوما أن ينفذ لاراضيها من هذه الفجوة الواسعة •

لذا تزوج الملك (أكبر) أميرات هندوسيات واتخذ وزراءه من المسلمين والهندوس ووضع النظم التي هي أكثر ملائمة لشعوبه حتى كتب لكثير منها البقاء فاقتبس الانكليز كثيرا منها لصلاحها ، كما شجع هذا الملك على اقامة معابد لجميع الاديان حتى خيل اليه أنه يستطيع أن يصهر الاديان كلها في دين واحد ، ومزج الفن المعماري الاسلامي بالهندي •

وعلى أثر ضعف ملوك المسلمين في الهند والذين لم يبق لهم سوى الاسم وغزوات الفرس والافغان المتكررة وتنافس الامراء فيما بينهم ، ووصول فاسكو دي جاما الى الهند عام ١٤٩٨ ظهرت أول بوادر الانقلاب العالمي الحديث الذي أوجد الرأسمالية الاوربية الحديثة ومهد لها سبل السيادة على العالم ، تفتحت الذهنية الاستعمارية لاحتلال الهند فأخذت تمهد السبل لحملاتها وتشوق الجيوش لغزواتها ، فبثت الدعاية الواسعة عن الهند وما فيها من خيرات والبلاد الشرقية وما تغرق به من نعم وما ستدره عليهم من مغانم •

فأخذوا يعيدون للاذهان تأريخ الشرق وماضيه السعيد وراحوا يتحدثون عن اهرامات مصر ووادي النيل وبابل والف ليلة وليلة وتاج محل وكنوز دلهي •

ويجمل بالذاكرة أن استعيد وصية بطرس الاكبر قيصر روسيا

التى أوصى بها خلفاءه « تقدموا ما استطعتم من القسطنطينية والهند ، فان من يحكمهما يكون سيد العالم بلا منازع .. ثم واصلوا السير الى الهند محط كنوز العالم وتوغلوا في ايران حتى تبلغوا سواحل الخليج ، وأعيدوا الحياة الى الطرق التجارية في الشرق » .

ومن أساليب الدعاية المغرية ما قاله أحدهم عن العراق « ان العراق وحده يستطيع أن يمون المانيا بكل ما تحتاج اليه من قطن وحبوب وان العراق سيكون في المستقبل من اعظم مخازن الحبوب في العالم » .

ودعى السير وليم ولكوكس الى نفس الغاية فقال (لو ضبط فيضان نهري دجلة والفرات ضبطا متقنا لبلغ وادى الرافدين شأوا لا مثيل له في التاريخ » والسير وليم هو الذي صمم سدة الهندية في العراق ووقف على انشائها عام ١٩١١ كما انه صمم خزان أسوان في مصر عام ١٨٨٣ .

وواضح لقاريء التأريخ بأن أنظار الانكليز اتجهت نحو الفرات على أثر المحاولات التي قام بها نابليون لاحتلال مصر وكان الغرض منها مهاجمة الهند وقد تولدت رغبة نابليون في الاستيلاء على الهند منذ نشأته الاولى حينما طالع كتب مشاهير التاريخ القديم كالاسكندر الكبير ورأى ان الشرق كان قبلة آمالهم وقوام عظمتهم ، فصار يحلم بأن يكون له من الشهرة مثل ما كان لهم ، ولكن الدوافع الفعلية التي دفعت نابليون لمهاجمة الهند ترجع الى طموحه ورغبته الملحة في أن ينازل انكلترة في الشرق بعد أن عجز عن منازلتها في أوربا .

فحمله هذا الطموح وتلك الرغبة على مهاجمة مصر والاستيلاء

عليها عام ١٧٩٨ وايفاد رسله منهـا الى رجال الشرق يخطب ودهم ويتقـرب اليهـم وبث الدعاية ليهيء أفكار الشـعوب الشرقيـة لولائه ونصرته •

في هذه الفترة أخذ ينادي الانكليز بامكان قلب أرض الرافدين وتحويلها الى جنة غناء وذلك بريها وزراعتها وتغطية أرضها بالغابات الكثيفة ، وكان الغرض واضحا من هذه العناية في أرض الرافدين وهو ضمان سلامة طريق الهند •

وان محاولات الاستعمار البريطاني للاستيلاء على الهند بدأت منذ أن تألفت شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠ كما أرسلوا سفيرا لبلاط الملك المغولي في الهند ، ومن الطريف أن نذكـر بأن الملك المغولي وحاشيته كان راسخا في أذهانهم بان ملك الانكليز ليس الا سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون فقراء بائسون ، وأطرف ما حدث في هـذه العلاقات الدبلوماسية غير المتكافئة أن السفير الانكليزي طلب كتابا من الملك المسلم فرده الوزير الاول بقوله « ان مما لا يناسب قدر الملك المغولي أن يكتب الى أمير صغير كملك انكلترة » ، بيد أن تلك الشركة الانكليزية لم تقنط بل دأبت تعمل حتى نالت بطرقها الخاصة براءة من الملك المغولي بالسماح لها بالمتاجرة في الهند ولم يمض على تأسيسها ستون سنة حتى اشترت مدينة بومبي من البرتغال ومن ثم اسـتولى الانكليز على الهند وفتحوها •

لا يأخذنك العجب كيف استطاعت أمة اوربية أن تسيطر بالف موظف وستين الف جندى على امبراطورية قوامها ٣٥٠ مليون نسمة من السكان ، اذ سيذهب هذا العجب اذا ما علمت بأن الروح القومية كانت

مفقودة في الهند ، كما أن نظام الطوائف كان قائما وهو الذي يفرق بين طبقات العرق الواحد ، لذا رأينا بأن الهند الواسعة الارجاء الزاخرة بالسكان الخارقة في الثراء فتحت برجال الهند وأموالهم .

وما أصدق سيلي الانكليزي عندما تنبأ فقال « تغيب امبراطوريتنا الهندية عن الوجود عندما يبدأ الشعور القومي ينمو فيها ، وعندما يشعر الناس بأن من العار مساعدتنا على دوام سلطاننا » .

وليس أدل على صدق نبوءة هذا العبقري مما نراه في الهند الحديثة آثار هذا الشعور القومي المتنامي في مختلف الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، فضلا عما تتمتع به الهند اليوم من مركز مرموق وصوت مسموع في المجالات الدولية .

ولا غرابة في ذلك يا عزيزتي اذ كثيرا ما تكون آلام الشعوب المظلومة الطامحة كالبخار المضغوط الذي تتكون منه قوة هائلة تدفعه للامام .

وهكذا كانت آلام الشعبين الطموحين العربي والهندي اللذين سارا مع الركب العالمي الصاعد بهذه القوى الجبارة التي يعززها ايمانهما بحقهما في الحياة .

الماضي لن يعود

أيتها العزيزة هيفاء

ها انا اتجول في الباخرة وحيدا ، لازور الام التي انجبت غاندى ، وغذت نهرو واحتضنت لكشمي •

ولا أدري يا عزيزتي كيف عادت بي الذاكـرة لايام دراستي الابتدائية يوم كنت أجلس مع الجالسين ، لنصغي أو نتصنع الاصغاء لمدرس الجغرافية اذ الويل لمن لا يصغي ـ فنتابع يده الرشيقة بحركاتها البطيئة لتحدد لنا تعرجات ذلك المثلث الشامخ الذى انتثرت على سطحه الجبال وصارع بأرضه المحيط الجبار •

ويستمر صوت المدرس ينساب هادئـا ناعما : ان الهنـد بلد العجائب والمتناقضات فالاديان فيها مختلفة ومنها الهندوسية التي تعبد الروح وتقدسها مهما حقرت وتضاءلت ولذا سمحت لنفسها ان تعبد البقرة لانها الام الحنون ، بل انهم غالوا أكثر من هذا حتى ذهبوا الى اعتبارها أم الله ، واستنتجوا هذه العقيدة من ان البقرة تدر لبنها عليهم واللبن يهب الحياة ، ومن هنا نالت البقرة المنزلة السامية حتى سوغوا لها أن تتجول في الطرقات بحرية وتعبث بأموال النـاس بنزق يتقبلونـه بصدور يعمرها الايمان ونفوس تغمرها الغبطة •

واللغات متعددة فللكلكتي لهجته وللبنجابي رطانته وللدلهي لغته ،

والعادات متباينة ومتناقضة ، اذ كانت العادة تحتم على الزوجة الوفية اذا مات زوجها المخلص •• ! وتمت المراسيم لارسال جثته الى المحرقة ان ترمي بنفسها على جثة زوجها الملتهبة وسط الشعلة المتصاعدة ليصبح بعد لحظات نسيا منسيا ، ولكن انتشار نور المعرفة بين طبقات المجتمع الهندى المتطور قد لطف هذه العادة المؤلمة فأصبحت الزوجة اذا فجعت بزوجها فعليها أن تحلق جميع شعر رأسها ، وتقبع في البيت مكرهة طيلة عمرها تترقب الموت أو الموت يترقبها •

وهناك عجائب المخلوقات فمن فيلة ثقال ضخام الى قردة لطاف خفاف الى طيور ضعاف عجاف •

وفيها غرائب الفواكه ، وانتبهت يومها واذا بي اصارع رضابا جموحا يكاد يفلت من فمي الفاره الفارغ ليمضغ تلك « العنبة » الطازجة الطرية التي راح مدرسنا يصفها بكل لباقة وصف العارف الخبير فجعلنا نتمطق منتشين بلذتها ونكاد نشعر متلذذين بحموضتها المحببة •

وهنا يستدرك مدرسنا فيقول : وما أبخس ثمنها فالعنبة هناك كل اثنتين أو ثلاث (بالآنة) •

فلا شك عندي يا حبيبتي ان مدرسنا الطيب أدرك جيدا سأمنا لمحاضرته وقد ثقلت علينا حركاته فتملق عواطفنا الصبيانية بهذه الالتفاتة الرائعة ، وعلم ان هذا السكون المطبق الذى شمل الصف باجمعه ما هو الا كبت لرغباتنا المنطلقة وترويضها على الصبر خوفا من غضبه وبطشه •

وما الضرر ان نصغى بعيوننا الزائغة ونطلق عقولنا حرة تتجول في أزقة بغداد المتشعبة لتقف عند الحاج جودي العطار الذي ينتظرنا



المؤلف في الباخرة التي اقلته الى بومبي

بصبر عجيب لننقده (الآنة) ويسلمنا (الخيط والطيارة) فنمتع عيوننا بالوانها الزاهية وأشكالها الهندسية البديعة، ونأخذها مستبشرين فرحين •

الا ان مدرسنا اللبق اصحانا بعد غفوتنا من هذا الحلم الجميل اذ ان ذكره (للعنبة) وبخس ثمنها في الهند وتمطقه بحموضتها وتلذذه بعطرها جعلني أتحسس جيبي المسكين لاطمئن على (عانتي) ولاشترى العنبة وأزهد (بالطيارة) ولكن يدي الصغيرة تعود خاوية فاشلة ، ويبقى فمي فارغا ، فمن لي (بالآنة) ولم يكن لى أب مثلك يا عزيزتي ينقذني كل يوم ويتحفني في كل مناسبة •

وعند صخرة الحرمان القاسية التي ارتطمت بها نشأتي الاولى والتي حالت بيني وبين الحصول على رغباتي الصبيانية المتعددة ، التمع بذهني خاطر غريب ، هو أن امتهن مهنة صالحة حرة لاوفر على نفسي (الآنة) ولاشترى (العنبة) ولاحقق رغباتي الصغيرة •

اظنك ستعجبين يا عزيزتي كيف أتيح لهذا الحادث التافه أن يرسم في ذهني الصغير خارطة مستقبلي ويلونها بريشة آمالي •

لا تعجبي يا بنيتي بل ثقي ان كثيرا من توافه الامور لها القدرة العجيبة على تغيير مجرى حياتنا •

مسقط

من وطننا العربي الكبير

هيفـاء العزيزة

كيف انتم وكيف بغدادي الحبيبة •

رست باخرتنا في ميناء مسقط ، أما روحي فكانت راسية على شاطىء من الآمال والاماني مبتهجة بتحررها في غوره وبعده ، وثقي يا عزيزتي بان نفسي لم ترتهب لهيمنته ولم ترتعب لسلطانه وعظمته ، بل الغريب انها كانت مطمئنة اليه غاية الاطمئنان مؤمنة به اعظم الايمان ولا أدري لم أنا واثق به هذه الثقة العمياء ـ كثقتي دائما بالجميع ـ فانقدت اليه انقياد الانسان المطمئن الى أخيه الانسان ، كأنني أشعر بانه يتحسس خفايا نفسي ويدرك باني انسان ضائع وهو أدرى بسر ضياعي واني حائر وهو يدرك كنه حيرتي ، لذا جئته لاجئا الى صدره الرحب الذى ينساب الماء عليه بهدوء ودلال كأنسياب الافكار السعيدة الحالمـة في الرؤوس المترفة الناعمة •

ولكنك تعلمين يا عزيزتي بان لهذا البحر حالاته العجيبة وغضباته الرهيبة ، يوم يضيق صدره بتقلبات الانواء كما تضيق صدورنا بتقلبات ظروفنا سواء بسواء •

ولكنني من ناحية أخرى أغبطه فهو أسعد حالا منا لانه يستطيع ان ينفس عن نفسه بثورة شاملة يقذف بها كل ما ضاق به صدره غير حافل بشيء ولا هياب من احد •

أما نحن البشر ، اذا ساءت بنا الحال وضاق أمامنا المجال ، فان ضرورات الحياة تحتم علينا أن نروض أنفسنا على تقبل التقاليد البالية والعادات الواهية ، فمن نفوس معطرة بعطور الدجل والرياء ، ومن وجوه مطلية ببشر خداع ، ومن ثغور مزدانة بابتسامة مرة صفراء، هكذا نسير أمام الناس كقطع الشطرنج تحركنا أيدى المجتمع القاسية وتقرر مصيرنا اهواؤه العاتية •

بنيتي هيفاء ها انا أطل على مدينة مسقط العربية ذات الموقع البديع ، فهي هالة من الجبال تحيط بالبحر ذي الزرقة الصافية كصفاء الامال الجميلة ، تعلوها قلعة فخمة شامخة شموخ النفوس الابية ، وحولها قصور متناثرة ذات طابع تأريخي يحاكي قصور (كوفاديس) •

وما هي الا دقائق حتى تسارعت نحو باخرتنا قوارب متناثرة تجذفها أيد معروقة قذرة وتتوسطها اجسام منخورة وتعلوها رؤوس حاسرة ذات عيون حائرة ، حفات عرات ، تتطلعين اليهم وكأنك تتطلعين الى الانسان القديم بعث من كهفه أو انتفض من قبره ، يحومون حولنا يبغون اللقمة ويستعطفوننا مستجدين الرحمة •

وحييتهم بالعربية وأنا أتخيل أنهم لا يفهمون الا البربرية ، فاستبشرت حينما أجابوني فرحين وسألوني عن موطني مسرورين ولما طرق سمعهم اسم بغداد تعالى صوت من جمعهم (بلد المكارم والامجاد) فابتاع منا من ابتاع بعض الاصداف والمحار التي يجمعونها بصبر عجيب ويعرضونها بثمن زهيد •

وراح منا من يرمي اليهم بنقود معدنية صغيرة ليراقب خفتهم

وسرعة متابعتهم لها وهي تتعرج بانكسارات الماء الهادىء فيتابعونها غوصا حتى يدركونها قبل أن تستقر في القعر .

الا يصيبك الحزن لهذا الجهل المطبق ، الا تتألمين لهذه السذاجة الممقوتة لعلهم سعيدون بهذه التجارة الكاسدة (والآنات) التافهة من حيث لا يدرون انها ثمرة لهذا العمر الضائع ونتيجة للجهود المضنية والمغامرة المهلكة وأغلب الظن أنهم نسوا قول المتنبي :

اذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

أما انا فقد اشفقت عليهم لهذه القناعة البلهاء التي تطمع الطامعين في استغلالهم وتزيدهم امعانا في استعبادهم .

أما انا يا عزيزتي فثقي باني أفضل الطموح الانساني القتال على هذا الجمود ، الذى ليس هو من طبيعة الحياة في شيء .

وهكذا غادرتهم وانا مشفق عليهم اشفاق شاعرنا العربي الكميت الاسدي على بني قومه :

فكيف ومن انى واذ نحن خلفة فريقان شتى : تسمنون ونهزل ؟

متى استعبدتم الناس

وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا

(عمر بن الخطاب)

عزيزتي هيفاء

تجولت اليوم بصحبة صديقي محمد كاديلي في مدينة بومبي ، التي راقتني شوارعها الرحبة واسحرني ساحلها الجميل (الكورنيش) المنحني انحناءة بديعة تحيط بصدر هذا البحر الزاهي بزرقته الرائعة •

ومما راعني في هذه المدينة الخالدة ذلك التناقض الغريب الذي لاحظته في طراز عماراتها التي هي عبارة عن أثر تمتـد جذوره الى العهد (الفيكتوري) الذى امتزج امتزاجا عجيبا بالفن الاسلامي الهندي •

بدا لي ذلك من هذه القباب والاعمدة العالية التي تصارع العين بغطرستها ، اما اكبر مثال لهذا التناقض الغريب في فنها المعماري هي بناية فندق (تاج محل) الشهير في بومبي الذى أدهشتني فخامته وسعتـه واعجبني نظامه ونظافته ، بقدر ما راعني التباين في هندسته •

لقد ذكر لي صديقي بأن الفن المعماري في الهند لم يحتفظ بطابعه الهندي الصميم كما انه لم يتطور الى الطابع الانكليزى التقليدى فلذلك أمسى فنا ممسوخا لا يتقبله الذوق ولا ترتاح اليه النفس •

ولكن ما لي وللهندسة يا عزيزتي فلنتركهـا لخبرة المهندسـين ولاكتب لك عن مدينة بومبي بروحانيتها وصبرها ، اذ انها لم تبلغ ما

بلغته من مجد الا بتضحيات أبنائها الذين صبروا على المحن طويلا وقاسوا مرارة الايام كثيرا ٠

ولاضرب لك مثلا باحد ابنائها الطيبين وانه لخير مثال لانسان انكر ذاته وتفقد الاخرين الا وهو القديس غاندي الذى كان لاسلوبه الاستغنائي بدل الاقتنائي الاثر الاكبر في استقلال الهند اقتصاديا ولمبدئه المنطوى على (اللاعنف) كل الاثر في تحررها وسيادتها سياسيا ٠

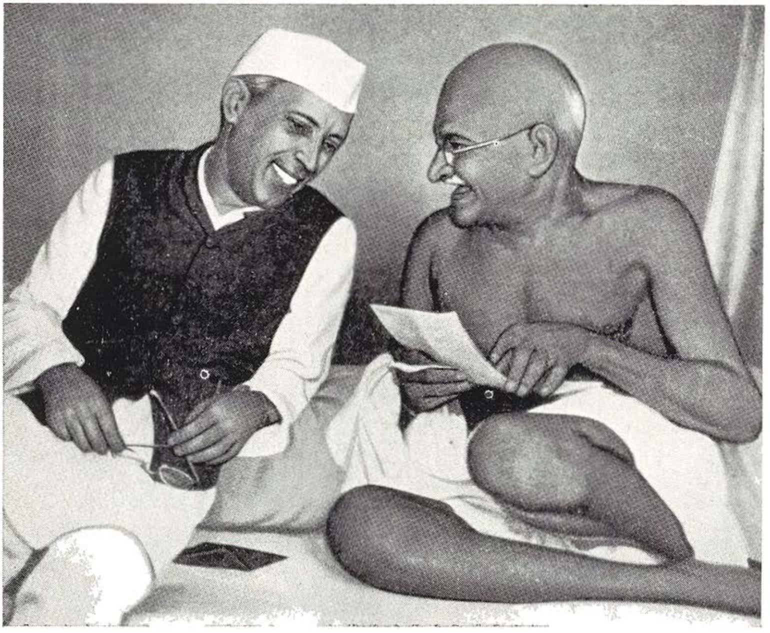
فحدثني صديقي الهندي عن الشرارة الاولى التي التهبت في كيان هذه الشعلة الانسانية التي سيبقى نورها علما تستضيء به الشعوب ٠

وكنت أنيل صاحبي أذنا واعية لالتقط بشوق ولهفة حديثه العذب بلغة انكليزية مشوبة بلكنة هندية ٠

فقال ـ وما أعذب ما قال ـ كان زعيمنا غاندي في جنوب افريقيا وكان قد حجز له مكانا في الدرجة الاولى وبقي وحده في المقصورة حتى دخلها رجل ابيض فلما رأى هذا الانسان ذا البشرة السوداء تراجع وعاد بعد دقائق ومعه شرطيان امرهما ان يخرجاه وحقائبه من الدرجة الاولى قسرا ٠٠ !

وكان في مقدور غاندي أن يحتل مكانا في الدرجة الثالثة كما هو مسموح لبني جنسه ولكنه آثر البقاء بالمحطة وكانت ليلة شاتية (القر فيها يعقد رأس الكلب بالذنب) لذا بقي الليل كله يرتعد من البرد ٠

وكان في هذه اللحظات الحاسمة من حياته يتصارع وجدانه الانساني المتيقظ مع نفسه التي راودته بان يعود الى الهند ، ولكن المسألة تبدت أمام وجدانه في صورة مأساة انسانية تحفزه الى النضال في سبيل اسعادها ٠



الاستاذ وتلميذه

كيف لا يكون كذلك وهو الذي درس القرآن دراسة متقنة في لندن مدركا قوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله ...) كما وعى (الجيتا) روحا ومعنى ألم يقل (ما دمنا جميعا من الاله الكامل فلماذا نقتل بعضنا بعضا ؟) ورأى ان يجعل ما في نصوصهما موضع التطبيق .

وهنا سألت صاحبي لماذا خطر لغاندي من دون المسلمين والهندوس أن يقاوم هذا الطغيان ؟ اذ أن ملايين من مواطنيه قد قرأوا القران كما ان ملايين من قومه تفهموا الجيتا ، وان عددا كبيرا من اولئك وهؤلاء وقع لهم مثلما وقع له من الذل والتعسف ؟ ...

ولكن صاحبي انتقل بلباقة يحدثني عن صفات هذا الزعيم العظيم فقال : كان في أحد جوانب هذه المدينة التي راقتك شوارعها الرحبة وحدائقها الفواحة ساحة كبيرة ترمى بها فضلات ما تلفظه البيوت ، فينبعث منها رائحة كريهة وتتطاير على جنباتها أسراب وأصناف من الحشرات القذرة فكان منظرها يقذي العيون ويحز في النفوس والناس في جهلهم يعمهون وللنصيحة لا يفقهون .

هنا تنطلق ذهنية غاندي اللامعة ويحفزه وجدانه اليقظ فاذا به في صبيحة أحد الايام والناس منطلقون الى أعمالهم لا يعنيهم من أمورهم غير تحقيق ما تصبو اليه نفوسهم ، واذا بانظارهم تقع على زعيمهم يحمل (زنبيلا) مملوءا بالفضلات النتنة يحاول جاهدا أن يضعه على كاهله النحيف ويسير به بخطى وئيدة قاذفا بمحتوياته خارج المدينة ، وشق عليهم ان يشاهدوا زعيمهم الشيخ يقوم بما يجب أن يقوموا به ، فراحوا يتهالكون لرفع هذه الفضلات ، وكأني بتلك الصفوف الزاحفة الطويلة

لها اول وليس لها آخر اشبه ما تكون بخطوط النمل خفة ونشاطا ، كل يجاهد نفسه فيما يحمل والكل يقتفون أثر زعيمهم وقدوتهم الى خارج المدينة •

وما هي الا أيام حتى وجدت هذه البقعة شيئا آخر يملأ رواؤها العين نورا والنفس بشرا ، لكثرة ما غرس فيها من جميل الشجر وفاح في أرجائها من عبير الزهر •

وبينما أنا على هذه الحال اذا بالشمس ترسل رسلها لتسحب ذيولها البيضاء ، فيجن الغروب باعثا في النفس الخشوع الذى ضاعف في نفسي تلك الوحدة القاتلة التي قاسيتها بعد ان رجوت صاحبي ان ينصرف ليفيء الى ابنائه وزوجته فينعم بلقائهم وانا أعلم ان الرجل الهندي مخلص نحو زوجته اخلاصا صادقا ، فيه الكثير من الروحانية والتقديس الذي ليس للعقل أي حق في مناقشته وتفنيد دواعيه أهو اخلاص عن تفاهم بالعقل وانسجام بالخلق أم هو عن اعجاب بالجمال واندفاع نحو الجنس •

لا هذا ولا ذاك وانما أعتقد أن مرد هذا الاخلاص يعود الى تشبع الزوج الهندي بروحانية الشرق ومثالياته •

وتجولت وحدى في هذه المدينة فجالت في ذهني خواطر حية كادت تهز كياني هزا ، فهذه المدينة التي تضم الملايين من بني الانسان وكل منهم تربطه بها رابطة الارض والدم والوطن وتحف به آمال ينشدها ويصبوا اليها ومستقبل يترقبه •

اما انا فأضحيت وحدي اتذبذب هنا وهناك كالطائر الحائر لا يقر لي قرار ولا يستقر بي حال ، أو كطفل ضائع فقد أمه فى غمرة الزحام

فهلع قلبه حين ظن انه ضاع الى الابد •

وليس ما يمنعني ان أقول لك الحقيقة بانني كنت أنا ذلك الطفل الضائع ، اذ ما لي وهذه الغربة عن الوطن ؟ ولم هـذه الفـرقة عن الاصحاب والاهل ؟ ولماذا اتجشم هذا العناء ألاجل مستقبل حافل ؟ ! •• أو ابتعاد بالروح الجموح لتحقيق أمنية لقلب طموح ؟

وفي غمرة هذه الهواجس تذكرت شاعرنا مالك بن الريب يوم قذفت به الايام الى بلاد الغربة (خراسان) فأهاجته لواعج حنين ممض لربوع وطنه واحرقت قلبه تباريح شوق محزن لايامه الخوالي فبعثها شعرا من قريحته الوقادة وسم الافعى لينفث في جسمه :

ألا ليت شـعري هـل أبيتن ليـلة
بوادي الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضـه
وليت الغضـا ماش الركـاب لياليـا
أقول لاصحـابي أرفعـوني فانـه
يقـرب بينـي ان سـهيل بدا ليـا
فيا صاحبـي رحلي دنا الموت فانزلا
برابيـة انـي مقيـم لياليـا

ولعمري ان سم الوحدة لينفث في النفس المغتربة المشوقـة التي كابدت الشوق أياما •

ومما الهب حنيني وضاعف في نفسي شـعور الوحدة وتفـاعل الطبيعة وانعكاسات تفاعلها على نفسي ان الشـمس دنت الى مؤخرة الافق وهي تجذب بقايا شعاعها الشفاف المحموم بهموم الايام فاذا بها

تطبع قبلة بشفاه لازوردية على نتوء صخرة كبيرة تصارع البحر وتتحداه ، وقد أعجبني اذ في صراعها ما يدعو للتأمل والروية ، فهذه الصخرة الوحيدة استغلت رذاذ البحر المتطاير من شدة لطماته المتكررة لها فروت منه اعشابا خضراء وزهورا ناظرة لذا راقت لمثواها العيون وانشرحت بعطرها الصدور فقصدها السامرون لتزجية الوقت ودلائل الرضى والاغتباط تشيع في وجوههم •

هذه الصخرة : الا نأخذ من صلابتها عبرة ونصوغ من مقاومتها فكرة ؟ ••

ما مُتّع غنيٌّ إلّا بما جاع به فقير

(الإمام علي)

عزيزتي هيفاء

ترتسم أمامي صورتك وأنا في بومبي جالس في شرفة من شرفات فندق تاج محل المطل على البحر فاتمثلها طافحة بالهناء والمسرة وانت اليوم بعمر براعم الربيع ففاضت في قلبي أشواق طفولتي وانتشرت في خيالي صور تلك الطفولة حين كان وجهي تغشاه ظلمة الحيرة والوجوم والاسى •

أو تعرفين ما الفرق بين طفولتي وطفولتك ؟ لا أظن أن عقلك الغض الطرى الذى تحلق في فضائه النقي الصافي أسراب من عصافير فجر الحياة تزغرد بآمالها وتشيد أعشاش أمانيهـا ، أن يدرك معنى الحرمان ••• انها كلمة بشعة قبيحة سوداء كظلمات الليل المدلهـم لا يدركها المنعمون ، وأنت متفيئة في ظل نعمة أسبغها الله علينا واتمنى ان لا يخيفك شبحها ويرعبك واتمنى أن ترينها في عيون المحـرومين ونظرات المحتاجين فتسعين لازالتها •••

يجمل بي أن أشير اليك بأصبعي الى ذلك الاخطبوط الذي يجثم على البيت ويلتف بأذرعه على الوالد والام والاطفال فيعصر كل واحد منهم عصرة يتمنى من خلالها الموت ويخطف من الطفل اليتيم في ليلة العيد ذلك البريق المشرق في عينيه المترقبتين ثوب العيد الجديد الاخضر والحذاء الاصفر اللماع •

وكم أنا سعيد اليـوم يا بنيتي الحبيبـة وقد قطعت أذرع ذلك الاخطبوط القاسي حين صارعته بمديتي ليل نهار حتى استطعت ان اطرد هذا الوحش من داري •• ولا شك انه تسلل الى دار بجوارى ••

أتدرين يا عزيزتي لم أبعث لك بهذه الرسالة المؤلمة وأنا بعيد عنك كل البعد في هذا البلد النائي ؟ ••• انني لا استدر عطفك لطفولتي البائسة فقد فات أوانها ، ولا لكي تشفقي على شـيخوختي اذا حان حينها ولكني أسجل هذه الخواطر لاذكرك دوما بأن هناك اطفالا وصبيانا مثلك يحتاجون الى عونك وعطفك ورعايتك ••• فقديما قيل (من نعم الله عليك حاجة الناس اليك) ••• ولعل أعظم هذه النعم التي حباك الله بها هي قدرتك على اعطاء ثوب من ثيابك أو حذاء من احذيتك الى لداتك من بنات اخواننا وجيرتنا وصديقاتك في المدرسة ان كن في حاجة فاذا بذلت للناس شعرت حينذاك بانسانيتك ورفعتك •

هل تذكرين يوم طاف بحديقتنـا ذلك الكلب المتشرد الضعيف الهزيل وهو يضطرب من الجوع والبرد ؟ وكيف رجوتك ان تلتقطي له من الطعام وترميه له ؟ أو تذكرين كيف التهم الخبز واللحم في نهم وشراهة ••• هذه هي الحاجة ••• ثم كيف راح يتمسح باطراف ثوبك الرقيق كأنه يريد تقبيلك على ما قدمت له من طعام وما اسرع ما اختفى ذلك الهزال في نظراته واختفت ضراوته واضحى هذا الحيوان الشرس يدور في الحديقة هادىء البال بعد ان نال الامال مما جدنا به عليه وعرفت أن ما يفيض عن حاجتنا من الطعـام يسـد حاجة صبي آخر •••

فقدمي من ثيابك لاخواتك المحتاجات فقد يثقلك خزنها ولكنهـا

تبعث الدفء في أجسام عارية ·· وقدمي الطعام فقد يتخمك أكله ·· ويبعث الحياة في معدة مسغبة ·

هل تذكرين ولوعي العظيم بذلك الكتاب الاخضر ··· وهل سألت نفسك عن سر اعجابي به وقراءتي الدائمة له ، بحيث يبلغ بي ذلك الولوع حذا اصطحبه معي في سفرتي الى الهند ···

ان كتابا يدرس حياة انسان كغاندي ويرسم للناس معالم شخصيته لجدير بكل تقدير ، وكم أتمنى أن تقرأيه ويقرأه أخوتك لتعلموا كيف استطاع هذا الزعيم العظيم الذى لم يكن يكسى جسمه الا وزرة وما أكثر ما اكسى من العراة ولم يكن يقتات الا على الحليب وما اكثر ما أطعم الجياع ··· كيف استطاع ان ينزل فى قلب الانسانية منزلة الانبياء ·

لقد كان هذا الرجل فيما بذله في حياته للناس مثل الانسانية في طموحها وشفقتها وحبها للخير ، وكل ما اتمناه ··· ان تنثري في أرض قلبك الطري بذور هذه المثل العليا في الاخوة والمحبة ومساعدة الفقراء ·

فهذه هي المثل الانسانية الشريفة آمل مخلصا ان تنميها وتروضى نفسك على أن تتخلقي بها ·

وأسعد ما أرجوه أن أكون أبا لانسانة ···

هكذا قال زرادشت

عزيزتي هيفاء

أنا في شوق اليكم جميعا ، بل كما قال شاعرنا :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ثم كيف أنتم ؟ كيف بغداد ، وكيف الاهل والاصحاب ؟ كيف حال أمي الحبيبة ، فقد زاد قلقي عليها هذه الفرقة الموحشة والنـأي الطويل كما أن رسالة عمك فخري لم تطمأنني عليها كل الاطمئنان فأنا الان مشفق عليها وقلق على صحتها ، واشتاق قربها ، وأي قرب وفيما بيننا هذا البحر الهائل ، اذن ردد‌ي يا عزيزتي على سمعها هذا البيت فهو خير معبر عن أدق مشاعري نحوها :

واشتاقكم شوق المصاب جناحه يسف فلا يهوى ولا يتوصل

ومبعث قلقي يا عزيزتي هو ما أخشاه من أن الجميع مقبل على حياته الخاصة عازف عن الانسانة التي ضحت بأيامها لتنير ظلمات حياتنا وتغمرها بشرا ومسرة •

دعيني يا هيفاء أناشد شوقي بأن يجزيها عني أكرم الجزاء فما أسرع قلبه الطرى بأن يتوجه نحو الخير وما أندى يده الصغيرة للبر ، فليكن بأمي بارا ولشيخوختها راحما وليروض نفسه على خدمتها بصبر وليعلم جيدا ان هذه نهاية كل منا •

عزيزتي هيفاء لا تقلقي على فقد تبددت سحابة نهاري القاتمة بأمسية طيبة ، فقد دعاني صديق هندى في بيته لاشاركه فرحته باحتفال (يوم نوروز) وهنا شعرت بالمسرة تغمر كياني كيف لا والانسانية الطيبة تنشر في أركان هذه الدنيا وتعمرها بالود والمحبة لو تركت وسجيتها ، فمن يغترب يجد من الاخيار من يسعدونه بعطفهم ويذهبون الوحشة بمحبتهم وقديما قال الشاعر :

فكل أمرىء يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وكم ينطبق قول شاعرنا على هذه العائلة وهذا المكان التي غمرتني بظرفها وكرمها فشعرت ـ وانا ألهو وأمرح ـ كأنني بين أهلي وخلاني ولا تعجبي فالانسان لن يضيع والعالم يضم ملايين من بني جنسه يشاركونه المشاعر والاحاسيس الانسانية .

وما أن أزفت الساعة التي ترقبها الحفل طويلا حتى اعلن رب العائلة حلول (عيد نوروز) فراح الحاضرون يهنيء بعضهم بعضا ببشر وود ووزعت أصناف من الحلوى والمرطبات وأحرقت أنواع من أطيب البخور عطرت أرجاء الدار ، ورأيت في كل زاوية من الارض أشكالا هندسية رسمت وصبغت بلون الجبس وطعمت بمادة أشبه (بالزعفران) ودفعني حب الاستطلاع أن أسأل عن سر هذه الرسوم التي شاهدتها هنا وفي أماكن أخرى ، فأجبت بانها مبعدة للعين الحاسدة ، فابتسمت وأدرك صاحبي الذكي سر تلك الابتسامة .

كان صاحبي هذا من المجوس وهم عبدة النار ، وكان يمتلك معملا لصنع علب الساعات والسكاير من مادة (البلاستيك) كما يصنع سلاسل الساعات من معدن الفولاذ النقي أي (ستيل) واستطاع

بهذه الصناعة أن ينافس بقوة استيرادها من المدن الاوربية ، ويعود ذلك لرخص اليد العاملة وللروح الوطنية المتأججة التي تشجع كل مصنوع وطني وتتنكر لكل أجنبي ، وهناك سبب أقوى وأهم من تلك الاسباب لازدهار المنتوجات الوطنية يتجلى بما تبسطه الحكومة عليها من حماية من جهة وبما تفرضه على المنتوج الاجنبي المماثل من رسوم كمركية عالية ، ولهذا السبب أهميته المباشرة اذ انها تجعل كل مستهلك حريصا على اقتصاده الشخصي حتى لو لم يكن حريصا على اقتصاده القومي •

ومما أضفى على مجلسنا المسرة وضاعف الحبور هو شخصية زوجته المؤثرة وكانت سيدة مثقفة أنيقة ترتدي ساريا بنفسجيا يضاعف من جاذبيتها وجمالها واذا بي أجد نفسي مدفوعا بغريزة الحياة الى استجلاء حسنها الرائع ومظهرها المترف والتطلع الى خصلات ذلك الشعر الاكث الفاحم المنثور الذى يثلج النفس ويلهب الشعور وامتاع عيني بمنظر تلك اللاَّلىء الفضية ، وكانت عيناها الواسعتان العسليتان تومضان بنظرات جريئة صريحة •

انها مجوسية من أتباع (زاردشت) نزح أجدادها من ايران بعد الفتح الاسلامي واستقروا في بعض مناطق الهند ، وهم أهل ذكاء وثراء نشطون لبقون يمتلكونك بحديثهم الشيق كما يمتلكون المصانع والمصارف والمتاجر في مدينة بومبي اذ منهم تتكون ارستقراطية مالية كبيرة في بلد المال •

فعابدة النار هذه كانت كفيلة بأن تلهبني بشتى الاحاسيس مما جعلتني أحلق بمخيلتي مع الاثير باحثا عما قاله (زرادشت) وما لم

يقله ، ولم انتبه وأنا ساهم في عالم خيالي سارح بأفكاري الا لقولها هكذا قال (زرادشت) فسألتها وانا استجمع شوارد فكري : وماذا قال زرادشت ؟

فأجابتني بلطف وأدب : لقد أكد لنا زرادشت بان الجسد دنس لانه عنصر الشر !••• أما الروح فهي العنصر الطاهر ••• ارتفعت عن الجسد ليتصل (بارموزد) لذا فان طريقة التصرف باجساد موتانا قامت على أدق قواعد الصحة نتيجة لهذه العقيدة ، التي ترمى الى تطهير (أمنا الارض) من أجسادنا البشرية الشريرة •

قلت وكيف يكون ذلك فأجابت : ان الميت ينتقل عند الاصيل الى (برج السكون) يحمله حمالون اما أهل الميت فلا يلمسونه خشية الدنس الذى ينتقل اليهم من الجسد الملوث ، ثم توضع الجثة حسب مركزها الاجتماعي اللائق !•• فان كان رجلا وضع قرب السور وللمرأة موقع ممتاز •• في الوسط ، اما الطفل فمكانه حفرة قرب البئر المطهرة وبعد أن يرفع الحمالون الكفن الابيض عن الجسد العارى يخرجون من البرج ويتركون الجسد لتنقض عليه العقبان المتجمعة فوق الاسوار والاشجار فيلتقط اسرعها انقضاضا العيون والخدود كأنه عاشق عزت عليه لقيا الحبيب طويلا فتحرق للقبل فراح يمتصها من الخدود وينهبها من العيون !•••

وما هي الا ساعة أو بعضها حتى تنتهب العقبان المتكالبة الجسد فتجرده من اللحم والشحم أما سرعة انتهابها للاجساد فتتعلق بقانون العرض والطلب ، فاذا كان العرض للجثث فائضا عن الحاجة ـ أقصد حاجة الطيور ـ فلا شك أن بعضها سيبقى كاسدا في المخزن •



الساري الهندي

والواقع ان النتيجة ستكون واحدة وان اختلفت المدة الزمنية فالعقبان ستترك في النهاية هيكلا عظميا نظيفا تحيله الشمس والامطار والهواء الى عناصر المادة الازلية •

وتنبهت الي فرأتني في شبه ذهول اتطلع الى وجهها بنظرات جامدة وأتتبع حديثها كطفل روعه حديث جدتـه عن (السـعلوة) والعفريت فمدت يدها الى علبة الحلوى وادنتها مني لتهدىء من روعي فالتقطت واحدة منها لامضغهـا بفمي الذى جف ريقـه وتقلصت عضلاته •

فابتسمت برقة وعذوبة كمن يوحي الي بان حديثها سحابة عابرة وكأنها نست أو تناست بانها تتحدث عن عيونها وخدودها وجسدها بل عن نهايتها وما علمت ان هذا ما ضاعف رعبي ولكن من منا لا يتناسى نهايته ، ألم أنس نهايتي وانا مأخوذ بجمالها ، وضاع تفكيري لقـول زرادشت حينما تتبعت رشاقة قوامها وأنا أحلق بأجنحة العقبان الكاسرة التي ستنهش هذا القوام وتضيع علائم هذا الجمال •

ثم راحت تحدثني عن كلبها الجميل ظنا منها اني أعجبت به كل الاعجاب ، وفاتها أن اعجابي كان منصرفا على رقة اناملهـا وخفـة حركاتها على فراء كلبها المنعم ، وكأنها تضارع أنامل احذق العازفين على اوتار الكمان •

فقالت ببساطة تنم عن طيبة قلب وكرم خلق : انني أهوى الكلاب وخاصة هذا الصنف الذهبي فهو يمتاز بصغر حجمه وجمال وجهه ونعومة فرائه فهل انت تهواه مثلي ؟ قلت : انه جميل حقا ولكن ليس لي الصبر الكافي لاروض كلبا على طاعتي ـ وانا الضعيف ـ فأجابت

مبتسمة وكأن الكلمات تذوب رقة وحلاوة على مبسمها الانور ، اما انا فأحبهم بعد زوجي وولدي وكتابي فهم عنوان الوفاء وموضع التسلية اذا ما غاب زوجي وخلت الدار من صخب (بتيل) وبتيل اسم طفلها الذى يبلغ السابعة من العمر فأجبتها وانا مقتنع بصحة رأيها ، اما أنا فسلوتي ابنائي وعملي واصدقائي ، فأجابت بحماس ظاهر اما عملك فانا أقرك عليه لانه ركن مهم في بناء شخصيتك ونشأة ابنائك ، اما الاصدقاء فلا أقرك عليهم وأكاد انكر ان هذا الشيب المنتشر بلمتك قد التهب عن تجارب ، أو انك طيب لحد الغفلة فأجبتها وانا متخـاذل امام شخصيتها الطاغية وصراحة آرائها ، انني كشارب الخمر يعلم انها مفسدة للمال والوقت ولكنها سلوته ، ألم يقل سقراط (اللهم ارحمني من اصدقائي اما اعدائي فأنا كفيل بهم) فهل يعني قوله هـذا انه تخلى عن الاصدقاء وهل ضحى أحد كما ضحى سقراط لاصدقائه أبناء الانسانية جمعاء .

فافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة رقيقة ولم أدرك يومها أهي ابتسامة أعجاب ام استخفاف ، ونهضت لتجيئني (بألبوم) يضم صورا كنت أظنها مجموعة لصور اصدقاء العائلة واذا بها صور لانواع من الكلاب وأشارت على صورة لكلب يزهو منتصبا على مائدة نثرت عليها بضع كؤس فضية واستغربت من علاقة الكلب والكؤوس فقالت أنه (ملك الجمال) بين الكلاب طيلة هذه السنين ولذا حاز هذه الكؤوس فرجوتها ان تتكرم علي بنسخة من صورته وأخذتها ودسستها في محفظتي بحرص وخرجت منها واكاد أكون مولعا بالكلاب !! .

قصة من الهند

عزيزتي هيفاء

بلغت الهند منذ مدة أراها ـ على قصرها ـ كالدهر ما دمت لا افتح عيني على اشراق ابتسامتك ولا أطرب على نغمات صوتك ، وما أكثر ما عانت نفسي من اشواق ولهفة فقد حيرتني والله هذه النفس العنيدة الطموح التي لا يقر لها قرار ولا تصبر على حال ، فنغصت علي مجالس الخلان ودفعتني دفعا الى هذا التشرد الحزين • ورحم الله أبن زين البغدادي اذ قال :

ما آب من سفر الا وازعجه ... رأى على سفر بالعزم يجمعه

كأنما هو من حل ومرتحل ... موكل بفضاء الله يذرعه

وكأنني موكل بدراسة أصناف البشر ومعرفة أساليب حياتهم واستطلاع سعة الارض ونهاية البحر ، فبلغت من العمر المضيع بين جنوح نفسي وجمود جسمي وكأن الحرب بينهما سجال ••• وأخيرا انتصرت ارادة نفسي فشاءت ان تتجول في الهند وقلبي يكاد يذيبه الحنان ويحرقه الشوق نحو من فارقتهم على كره مني ، فيهزني هذا الشعور هزا عنيفا حتى لاكاد أطير فأحل وسط مجالسهم وأركن الى قربهم ولا أفارقهم ما حييت ••• سوف لا تدركين هذا يا هيفاء لانك لم تجربي البعاد ، لا اذاقك الله اياه ولا اذاقني البعد عنك •••

لا أدري يا حبيبتي سر هذه العواطف التي تغمرني الان ولو جاز لي لسميتها العواصف • فانا اصبح وأمسى ونفسي تتضارب في أعماقها تلك الرغبات الملحة حتى لتود ان تحتضن الحياة وتقبل الارض وتتوسل الى الزمان ان يرعوي ••• ولكن انى له ان يرتدع عن غيه •••

عزيزتي : لقد رأيت الهند أ أستطيع ان اصور لك جمالها البديع وطبيعتها الساحرة وبحرها الهاديء هدوء النفس المطمئنة ، وحدائقها المنسقة بأيد هندية فنية كأنها بازهارها انغام منبعثة من قطعة موسيقية حالمة • وهذه الجبال تتخللها الوديان الخضراء وتهتف بالمسرة • وهنا وهناك نثار لازهار حية معطرة من الحور الحسان يرتدين (السارى) الهندى بالوانه الزاهية وزخرفته الفنية فتضفي رقة نسيجه على تلك القدود المائسة رقة وطراوة •

في مثل هذه الاجواء العابقة ووسط هذا الرذاذ المتناثر من ساحل البحر المنثني كنت اتطلع الى فتاة ذات ثغر لؤلؤي منظوم باتقـان من أنامل فنان نضده ليتجلى امامي مبتسما ابتسامة كلها اعتزاز وعذوبـة تنبثق من بين وردتين يكاد الدم يتفجر منها لولا عذب الرضاب يندى أعالي مخملها فتبعث بريقا ينعكس مع بريق اللالىء المنظومة ••• اما عيناها السوداوان الواسعتان وهذه الاشراقة المتـلألأة في بياضهـا فتذكرني بقبس نور يفيض به صباح باسم من أيام الربيع •

تمثلت هذه الخواطر في خيالي وانا جالس في مطعم أنيق تعبق أزهاره بعطر شذي وتتدلى اغصانه على الرصيف فتصافح المارة وتحييهم وكأنها بخضرتها العذبة اليانعة تهدى اليهم الامل •• وبينما كنت أهم

بمد يدي الى الطعام فاذا برجل يقف مني وقفة المتسائل دون أن يسأل ••• ! بعينيه السوداوين وأنفه الدقيق الجميل ووجهه الذي ينم على نعمة زائلة وبجسمه اليافع الذي لم تستطع ان تذبل حيويته السنون ••• وقف أمامي فرأيت أن استغني عن هذا العشاء وأشرت اليه بما يوحي عن عزمي بتقديمه اليه •• فاقترب مني باقدام متعثرة ونفس مترددة ••• ولما رآني جادا في عرضي هذا مد يدا ما خلقت لتذل انما صيغت أناملها لتعمل وتبدع • وكم راعني منظره وهو يتراجع بالاناء منتحيا زاوية ليلتهم الطعام التهام المنهوم الجائع الذي بات على الطوى اياما وأياما ••• وكنت أراقبه بتطلع شديد ولكن بحذر ! خشية ان يراني وانا أراقبه فيغلب عليه الخجل والاستحياء وما هي الا لحظات حتى عاد بالاناء وهو مطرق الرأس حتى اقترب مني ••• شكرني بانكليزية صريحة وبلهجة ان دلت على شيء فانها تدل على ما كان يختلج في نفسه من انفعالات متضاربة كان يحاول ان يغالب فيها طبيعة النفس العزيزة الابية بتعاليمها وكبريائها والتي تضطرها قساوة الظروف والحاجة الملحة الى ذل السؤال •••

لقد شجعني حديثه القصير بالانكليزية ان اتطفل فاستطلع منه سر تشرده ••• وما ان بادرته بالسؤال حتى هرب بخفة غزال روعته قسوة الصياد •• ثم توارى عن نظري مخلفا في نفسي الالم الممض على هذا الشباب الضائع وهذه الحيوية المبعثرة بلا نفع ولا جدوى ••• وهكذا يا عزيزتي ضيعت بهذه الافكار وامثالها سلسلة تفكيري التي كنت عرضتها قبل لحظات على شاشة تلك الحسناء التي راقبتها عن

كثب وبقلب كله شوق وآمال مشرقة أنستني مرارة الواقع وحلقت بي في أجواء عالم جميل من الروحانية والنور •••

عزيزتي هيفاء : جاء اليوم الثاني • وما سوف أرويه لك لهو الدليل على ان الناس أسرى الظروف والحوادث المحيطة بهم شاؤا أم أبوا ••• لقد كنت في نفس المطعم أراقب المارة واترقب احضار الطعام وأنا أشنف سمعي بأعذب الانغام الهندية ذات الالحان الشرقية الشجية ، غارقا في بحر أحلامي نشوان راضي البال ••• بينما انا على هذه الحال فاذا بصاحبي المتشرد يعود الي حافي القدمين حاسر الرأس عاري الجسم الا من قطعة قماش بالية تتوسط جسمه ، يحمل بيده عصا يعبث بها في الارض ، اقترب مني واذا بثغره المطبق يفتر عن ابتسامة من شفاه جافة كأنها باب سجن طال أمد اغلاقه فابتسمت له ابتسامة انسان يفرح للقاء أخيه الانسان ، وكيف لا أبتسم له وأنا الوحيد هنا الغريب الذي تجيش في نفسي مشاعر مختلفة وتتضارب فيها أهواء متباينة فرأيت رعاية لتقاليد الغربة وقياما بواجب الصحبة أن أطلب له طعاما ••• ولما أحضر الطعام جذبه جذبا عنيفا كمن يساوره الشك في صدق عزيمتي وان كانت كل تصرفاته معي تنم عن وثوقه بي وركونه الي •••

وحين سألته بلطف عن سر حالته نظر الي كمن يريد ان يستجمع شتات شمله وأخذ يتطلع اليّ بنظرات زائغة جامدة ••• ولكنها فاحصة كفنان يهم برسم صورة لفتاة احلامه ••• لقد راعني صمته المخيف ووجهه الساهم ولكنني مع هذا تشجعت وكلمته بلهجة المطمئن محاولة مني لبعث الثقة في نفسه المضطربة ••• فتهلل وجهه بابتسامة الرضى

دليلا على رغبته بالافضاء الي بقصة حياته ••• واذا بوجهه يربد ثانية ويتجهم حينما رفض باباء وشمم عجبيين ما قدمت له من نقود فزادني تصرفه هذا حيرة وعجبا ! وأخذ يحدق بوجهي طويلا وراح يغمض عينيه كمن يغرق في حلم مرير مرعب أو يستحضر في ذهنه صورا من ماضيه البعيد أو القريب ! ••• ثم انطلق يحدثني بوجه معبر وأسلوب مؤثر وايماءآت تنم كل واحدة منها عن ألم دفين ! قال : كنت أسكن مدينة (اكرا) حيث (تاج محل) يطاول الزمن بروعته وفخامته ناطقا بأروع رمز يتمثل فيه سمو معاني الحب والوفاء للزوجة ! ••• كنت هناك وكان لي محل أبيع فيه ما انحته من مجسمات مرمرية صغيرة لتاج محل وشرفاته وقبابه • فما من زائر لهذا الاثر الاسلامي الخالد الا وتقع عيناه على معروضاتي فيبتاع منها ••• وكان مجرى حياتي طيلة بضع سنوات يسير سيرا رتيبا هادئا ، ولا هم لي الا الربح الحلال ولا انشودة عندي الا مستقبلي الذى كنت اترقبه بنفس واثقة يعمرها الايمان وقلب تتزاحم فيه الاماني والآمال ••• وكنت أنام ملء جفوني ، واحلامي أرقام تتصاعد وأرباح تتضاعف ••• فاذا استيقظت كان الشوق يدفعني دفعا الى محلي للقاء السواح والزائرين الوافدين من شتى اقطار الارض ••• لم يكن عندي وقت فراغ ولم يتسع لي مجال العمل المتصل الى اختيار الاصدقاء ••• فقد كان صديقي الوحيد هو العمل وحسب ! وسارت الامور سيرا طبيعيا وأنا مغتبط لسيرها أعظم الاغتباط ولم أعلم ان الانسان في هذه الحياة مسير لا مخير ! الا بعد ان نكبت في فتاة احلامي ! •••

ولما بلغ هذا الحد من حديثه وجدت صوته يتقطع وقد أغرورقت

عيناه بدموع حاول جاهدا أن يخفيها عني فعلمت لاول مرة ان هذا التشرد يخفي وراءه قصة حب عنيف ... ولم أشأ أن ألح عليه ليستطرد في الحديث فقد آلمني حاله الى حد بعيد ... ثم استمر يحدثني بعد أن هدأ روعه ... اما كيف حدث ذلك فانني كنت يومها أعلم بأن لي جارة شابة تسكن ووالدها غرفة تشرف على محلي وكان يفصل بينهما شارع ... ولم أكن اعرف يومئذ سر الدوافع التي حفزتني الى مراقبة حركاتها وسكناتها ذهابها وايابها ، واذا ما دخلت غرفتها لتصفف شعرها الغزير المسترسل على كتفيها المرمريتين أو أن أراقبها على بعد وهي جالسة تعانق كتابا أو تقرأ في مجلة ... ثم توالت الايام فاذا الفتاة تمتلك عليّ جميع مشاعري وأحاسيسي ولم أعد اصبح أو امسى الا على طيفها في يقظتي ومنامي : وتمكنت من نفسي فأصبحت لا أندفع نحو محلي ولا هم لي الا رؤيتها ! ... حتى بلغ بي الهيام حدا اصبحت معه أضيق ذرعا بالزبائن الذي كنت أحبهم وأتشوق الى وقوفهم امامي لمساومتي في ابتياع معروضاتي ... اصبحت أنفر منهم وبت اترقب الوقت لحظة لحظة ... لاستغلها حين يبتعدون عن محلي لاخلو الى نفسي فاتطلع اليها أو أسرح فيها بخيالي ...

وعندما تمكن حبها من نفسي عقدت العزم على ان اكلمها وأبثها لواعج هيامي ووجدي : وكان لي هذا غير أني لم أكن اعرف بان اللقاء الاول بيننا سوف يعقد لساني فتتعثر الكلمات على شفتي حيرى فلم استطع الافضاء اليها بذات نفسي ... أما هي فلم تقل شيئا ، ولكني قرأت في عينيها كل شيء وفي كثير من الاحيان تفصح العيون بوسيلة أبلغ مما تستطيعه الالسنة الفصيحة ! ...

ثم عدت الى محلي وانا أكثر اطمئنانا على مستقبلي فرحت اضاعف جهودي ونشاطي وعزمي عزما أكيدا على توفير المال لاخطبها من أبيها • وسار حالي من وضع حسن الى أحسن وبت وأياها نلتقي خلسة وأجنحة الحب والسعادة ترفرف علينا في جو معطر بالطهر والعفة • وما ان انتهت من امتحانها النهائي حتى فوجئت بخبر هز كياني هزا عنيفا وأقض مضجعي ••• فقد علمت أن جارنا الثري قد خطبها من أبيها ! وعندما التقت بي كان الهلع قد أخذ منها كل مأخذ ••• طمأنتها على ان أباها سوف لايردني مطلقا بل سيرحمني في شبابي وحيويتي ويفضلني على ذلك العجوز بثرائه وغناه ••• قلت لها ذلك وانا أعلم الناس بكذب ادعائي وبطلانه وهل من أحد في الهند من يرد مثل هذا الخاطب الذي يتناثر الاصفر الرنان من بين أنامله ؟ وفعلا حدث ما توقعته ففي يوم وليلة زفت حبيبتي الى ذلك الشيخ الثري لا في مدينة (اكرا) حيث نقيم بل في مدينة نائية تدعى (جهو) وهي أقرب الى بومبي منها الى دلهي ••• وعبثا حاولت أن أسلوها واصبر نفسي على فراقها ••• وفي حالة لا شعورية بت اتسقط أخبارها • وراعني بعدها فتداعى كياني وانهارت صحتي ومع ذاك فلم أجد وسيلة اروى بها غلتي الصادية خيرا من التوجه الى (جهو) وكم من المرات تلو المرات أغلقت فيها محلي وتركت العمل ومرت الايام فاذا بزبائني ينفضون من حولي واحد واحدا ••• ثم خسرت جزءا من ثروتي بنفقات هذه الاسفار الطويلة ••• وأخيرا عزمت على غلق محلي لاهيم على وجهي وأكون (فقيرا) من فقراء الهند ، وما أكثرنا في الهند ••• ألم يهم قبلي (بوذا) بذات الله فلم لا أهيم انا بذات حبيبتي ، وتركت أمي ولا أدري الان كيف

حالها ••• ألم يترك بوذا من قبلي أمه وزوجته وولده وامارته ! •••

وما أن انتهى من حديثه حتى غمرني مزيج من شعور الاشفاق عليه والرثاء لحاله ••• ومن أجدر بالرثاء والاشفاق من رجل لم يتزود بنور المعرفة ولم يتسلح بسلاح العـلم حتى اضحى يعيش في مثاليات حب خيالي لا يمت للواقع القاسي بشيء ويحيا بمثـل هـــذه العواطف البدائية الساذجة حتى اذا هزته صروف الزمن انهار وتلاشى كما يتلاشى الثلج البارد امام ريح جافة ••• قلت له محاولا أن أدير دفة الحديث الى وجهة أخرى وان انقذ نفسي من هذا الجو المحزن وأنا في منأى عن الوطن ••• قلت له لم لا تستر جسمك بشيء يقيه من وهج الشمس ••• فأجابني باعتداد وصراحة ـ ان بين جنبي قلبا يضطرم نارا موصولة الاوار فلم يعد يهمني ظاهر الجسد ! •••

فراعني جوابه المؤلم وعقدت الدهشة لساني ووجدت نفسي بلا وعي اتشاغل عنه وعن المتطفلين من حولي بوضع نظارتي على عيني محاولا بها ستر الدموع التي أنحدرت منها •••

نظام الأمومة

عزيزتي هيفاء

« تمنيت لو تطوى المسافات بيننا   ويطوى المدى ما بين بغداد والهند »

لاحدثك عن مشاهداتي في الهند وعن غرائب عاداتها التي لا زالت تتحكم ببعض القبائل في مناطقها النائية التي حرمت من نور المدنية بحكم موقعها •

فالمسافر للهند يحس بغير عناء ما طرأ على الاجيال البشرية من تطور وما بين هذه الاجيال من فروق وما يشد بعضها الى بعض من روابط ، فالمستطلع هنا يدرك أن الحاضر منحدر من الماضي وانه هو الذي يزرع بذور المستقبل وان طبائع وعادات القوم انتقلت اليهم بالوراثة من غابر الازمان التي لا نستطيع ان نتجاهل سلطانها وتأثيرها •

فنظام الامومة كما نعلم هو أول نظام ظهر بعد الدور الذي كانت تعتبر فيه جميع نساء القبيلة وأولادهن ملكا لجميع رجال القبيلة ، فهذا النظام هو أصل الاسرة وهو الذى يجعل الام زعيمة أولادها فتمنحهم حق الارث وحمل اسمها •

ومن الغريب ان نرى هذا النظام البدائي قائما اليوم في عدة مناطق من الهند، لا سيما فيالمناطق القريبة من (التبت) ، فقبيلة (الناير) الهندية لا زالت تأخذ بنظام الامومة اذ غدت النسوة ملكا لبعض الرجال وعهد

اليهن بادارة الاسرة ، فالزواج قائم على مبدأ تعدد الازواج من الذكور ٠

وأرى من الطريف أن أذكر لك كيف يتم الزواج فالخطيب يضع قلادة في عنق الفتاة التي يرغب الزواج منها ، ويستمر زواجها به ما دامت راضية بهذه القلادة ومحافظة عليها ، فاذا ما مضت أيام سرح الزوج مع جائزة وبذلك يفسح المجال أمام زوجته لتختار أزواجا آخرين ٠

وبهذه الطريقة تصبح الفتاة النايرية زوجة لعدد من أفراد القبيلة على ان لا يزيد عددهم على الاحد عشر رجلا ! ••• وأطرف ما في الموضوع أن الفتاة هي التي تختار أزواجها بعد اقترانها بخطيبها الاول ! •••

وكنتيجة لذلك ان الاولاد الذين هم نتاج تلك الاقترانات الموقتة نسبوا الى أمهاتهم وسموا باسمائهن وأضحت المرأة النايرية ربة الاسرة وراحت تمارس سلطاتها المكتسبة تساعدها في ذلك ابنتها البكر ، والغريب أنها لا تقبل ان يعيش معها من أزواجها أحد وانما الذين يعيشون معها من الذكور أخوتها وأولادها فحسب ، وعلى ذلك نرى ان الحب المتبادل بين الاولاد وأخوالهم يعادل الحب المتبادل بين الاولاد وآبائهم في الامم الاخرى ٠

لذا فلا يكون للزوج أي سلطان على الاسرة ما دام عمله قائما على السكنى الموقتة مع زوجته ولا يكون للزوجة من شاغل يشغلها الا اختيار أقوى الرجال وأجملهم ما دام لها الحق المطلق في الاقتران بمن يروق لها من الرجال على ان لا يكونوا من طائفة أدنى من طائفتها حذر العار والفضيحة ! •••

هذا قليل من كثير من العادات الغريبة الشائعة في المجتمع الهندي التي كانت سببا في تفكك روابطه العائلية ومن ثم الاجتماعية والوطنية ولذلك راح الطامعون في الهند يساعدون على ترويجها وتثبيتها الا ان النظام الوطني الحديث تكفل بمحق الكثير من هذه السخافات واستئصالها من المجتمع الهندى وذلك بنشر نور الثقافة بين مختلف طبقاته ومناطقه ، وانه في طريقه الى استئصال البقية الباقية من هذه العادات .

ان قادة الفكر في الهند ورجاله المخلصين لا يكتفون ببذل الجهود للقضاء على كل ما هو رجعي سقيم من التقاليد والعادات التي خدرت اخواننا الهنود أجيالا ، بل بمضاعفة تلك الجهود لتوجيه القوى الروحية والفكرية والجسمية لدى المواطنين الى كل ما من شأنه ان يضاعف انتاجهم القومي ويرفع مستواهم ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا .

بوذا
داعية السلام

عزيزتي هيفاء

ان في دراسة حياة أي نبي أو عبقري أو التحدث عن شخصيته حدا لغرورنا ومطامعنا ورغباتنـــا ، وقوة تعلمنـــا تحمل قســاوة الايام وصدماتها •

ففي رسالتي هذه سأكتب لك عن قصة بوذا الزاهد الهندى الذى ولد في قفص من ذهب فانطلق في الفضاء باحثا عن شجرة الحقيقة ولما عثر عليها راح يدعو للحب والصبر والتسامح •

ولد هذا الانسان تحت ظلال جبال هملايا وكان أبوه أميرا على قبائلها وأمه أبنة ملك مجاور لها وترعرع وسط الوان من الترف والمتع وفي جو من السعادة والحبور راح يجنى أشهى الثمار من شجرة الحياة الوارفة الظلال ، حتى اذا بلغ الربيع التاسع عشر قدمت له أجمل ثمرة فاقتطفها وما تلك الثمرة الا الاميرة (ياسوذارا) ابنة عمه •

انطلق الشاب يوما بعربته المطهمة جيادها متجها صوب الريف ليمتع نفسه بنزهة هادئة في أجوائه الرحبة تنطلق سابحة في عالمها باحثة عن شيء مجهول يناديه ولكن دون أن يهتدي اليه •

وبينما كانت العربة التي يقودها حوذيه الحكيم تسير متعثرة بين المنعطفات تعلو مرة وتهبط أخرى فتدغدغ بحركتها واهتزازها خياله

الجوال وتتغير الخضرة النضرة امام عينيه البراقتين وقع نظره على شيخ ضعيف البنية غائر العينين في اعضائه رجفة وفي حنكه ارتخاء يسيل لعابه من فمه الاجوف ، فتقزز الشاب من هذا المنظر المؤلم ، ولكن الحوذي همس في أذنه ـ هذه سنة الحياة يا أميري ـ •

وقبل ان تتلاشى صورة هذا الشيخ من ذهنه المتوقد اذا بعينيه تقعان على متسول تناثرت على جلده القروح والندوب حتى غدا منظره بشعا فاكفهر وجه الشاب لهذه المناظر التي لم تتعودها عيناه في قلعته وقصره ولكن الحوذي همس مرة أخرى ••• وهذه أيضا سنة الحيـــاة يا مولاى •

وأمر حوذيه أن يعود به الى قصره ليمتع نفسه بالتطلع الى الرياش الفاخر والبرك الرقراقة والاجسام الممتلئة اللينة والوجوه المنعمة الغارقة في الحشمة ، وفات الامير أن الهند التي لازمتها الفوارق الطبقية طويلا لا تخلو طرقها من البائسين والمحتاجين •

فلم يكد يخطو خطوات أخرى حتى وقع نظره على جثة عارية متورمة لشدة ما دب في كيانها من الفساد والتفسخ وسرعان ما توطنت عين الامير على رؤيا الحقيقة وراح يمعن النظر طويلا في هذا البؤس الانساني المحزن واذ ذاك همس الحوذي الحكيم في أذن سيده ـ أما هذه فنهاية الحياة ـ •

ولما وصل الامير الى قصره خلد الى الوحدة وراح يفكر في سر تعاسة البشر •• فقد تجسمت أمامه شاكية ظلم الأنسان لاخيه الانسان •

وأخيرا صدق عزم الامير على ان يعمل شيئا ليخفف من حدة تلك



تمثال بوذا

التعاسة ••• فصمم على أن يهجر القصر بمباهجه ومباذله وينطلق في الارض وحيدا ليبحث عن الحقيقة ! •••

وبينما كان يهم بتنفيذ خطته اذا بالبشرى تزف اليه باشراق مولوده الجديد في أفق الحياة فاحتفلت الاسرة بهذا المولود السعيد وعم البشر أرجاء المدينة الا الامير الشاب فلم يشاطرهم فرحة هذا الاحتفال لانه رأى في الابن رباطا يشده بقوة الى الحياة التي عزم على أن يهجرها •

وما أن انتصف الليل وانفض المهنئون والمحتفـلون حتى تسلل الشاب الى مخدع زوجته بهدوء وانحنى يتأمل وجهها ويراقب صدرها الذي يتحرك ببطء لاستنشـــاق الزهور التي طفحت بأريجها العاطر أجواء الغرفة وتطلع الى طفله الذي استرسل في اغفاءة حالمة على ذراع أمه الحنون ، فتحركت في أعماقه عاطفة الابوة وهفت نفسه بأن يحتضن الام ووليدها ويروي صدره العطوف بدفئهما ولكنه أحجم خشية ان يوقظهما واكتفى بنظرة الوداع ••• وتسلل من الغرفة خائفا يترقب ، وأمر حوذيه بان ينطلق به في جوف الليل نحو المجهول ، وما ان انطلقت العربة بخيلها المطهمة حتى راح صوت خفي يناديه ويغريه بأن أرجع عن عزمك فسوف تصبح ملكا منعما •

الا أن صوت الحقيقة القوي أخرس صوت الاغراء وما أن بزغت طلائع الفجر حتى أوصلته العربة الى ضفة نهر هاديء ••• فترجل عنها وقص شعره وخلع ثيابه وجواهره واعطاها الى حوذيه وارتدى ثوبا خشنا ومضى ينشد الحكمة لدى الحكمـاء وما زال ماضيا في سـبيله حتى استطاع أن يهتدي بعد جهاد طويل الى الطريق الوسط •

فبوذا الذى عاش في ظل النعم وذاق الوان الترف والملذات التي ينغمس بها المترفون ، كما ذاق واستشعر بصـدق واخلاص الوان الشقاء والذل الذى يقاسيها الفقراء والبائسون ، استطاع ان يقرر هذه الحقيقة التي تضمنتها مبادؤه الثمانية وهي :

سمو المقاصد وصواب الرأي ولطف الحديث واستقامة السلوك ومسالمة الآخرين وفعل الخير والنشاط الفكري والتـأمل العميـق . وأكد بوذا بأن الانسان لن يستطيع ان يكبح جماح نفسه ويحـد من شهواتها الا اذا استطاع ان يتمسك بهذه المبادىء .

فهل ترين يا عزيزتي أن الانسان استطاع أن يكبح جماح نفسه وقد مضى على التبشير بمباديء بوذا الفا عام ؟ ..

التَّصنيع ضَرُورَة وَطَنِيَّة

لدعم الاستقلال

عزيزتي هيفاء

اكتب لك وانا في الطائرة التي تقلني الى دلهي ، وان سكون الليل وأنين المحرك ضاعفا وحشتي ووحدتي ، فهذه المشاعر بالوحدة تتناسب ـ كما يقول الرياضيون ـ تناسبا طرديا كلما شطت المسافة عن الوطن وطال اغترابي عن الاهل والاصحاب .

فاترنم بقول الشاعر الذي يتجاوب صداه في كياني فيلح عليّ باعادته ...

فما أبغي سوى وطني بديلا فحسبي ذاك من وطن شريف

هيفاء ايتها العزيزة بينما كنت مشغولا بكتابة رسالتي اليك اذ بشخص هندي كان جالسا بجواري راح يسألني بلطف وكم بالهند من لطف وظرف يعطرهما شهامة شرقية أصيلة ، سـألني مبتسما عن كنه هذه الخطوط قلت انها رسالة بالعربية لابنتي التي دفعني الشوق للتحدث اليها ، فأجاب متظرفا انها شبيهة كل الشبه (بالاوردو) وأدركت انه لم يبغ من سؤاله ان يعرفني بالرابطة بين العربية والاوردو وانما قصد الى أبعد من هذا وهو تبديد هذا السكون المطبق الذي عم علينا نحن المسافرين ، وهل يستطيع الانسان ان يكون في غنى عن أخيه الانسان وهو يسير في سبل الحياة المتشعبة المسالك والمتعددة الغايات .

وما أسهل وأسرع ان تتآلف قلوب الناس على المحبة وخاصة المحبة بين المغتربين (وكل غريب للغريب نسيب) فالتعرف في الغربة ما أن يبدأ بسؤال تافه ممزوج بابتسامة يوجهها أحدنا للاخر كاستطلاع الوقت أو الاستفهام عن حالة معينة كالجو مثلا ، حتى تفيض العواطف الانسانية والمشاعر الطيبة فتأخذ طريقها ببساطة الى كل مجال وحديث بين المسافرين وهذا ما جرى فعلا بيني وبين صاحبي الهندي الطيب ، فسرعان ما نشأت بينه وبيني مودة جرتنا الى الوان من الحديث تارة والى ازجاء الفراغ بلعب الورق مرة أخرى ، وكم كان صاحبي سعيدا حين علم بأني أعرف هذه اللعبة التافهة ! .. لاهميتها عنده وأدركت في حينها أن المرء لا يخسر شيئا اذا ما تعلم كل شيء ممكن تعلمه في هذه الحياة .

وبعد ان توطدت الروابط الانسانية بيننا من خلال أحاديثنا العرضية تلطف صاحبي فسألني عن الفندق الذي حجز لي في دلهي ، ثم أردف قائلا بأني سأوصلك الى حيث تشاء بالسيارة التي سيرسلها لى النادي الرياضي الذي انتمي وينتمي اليه كثير من الشباب الهندي الواعي لما يمتاز به من توفير الخدمات والمساعدات الى منتسبيه بالاضافة الى اضطلاعه بمهمته الرئيسية في نشر الروح الرياضية في جميع أرجاء الهند ومن تلك الخدمات أنه في كل مدينة من مدن الهند المهمة فرعا يحتوي على بضع غرف للمنام ومطعم ومكتبة فاذا ما رغب أي عضو من أعضاء هذا النادي زيارة أية مدينة هندية فما عليه الا أن يشعر النادي بموعد وصوله ليجد بانتظاره سيارة ثم شقة كاملة تتوفر فيها اسباب الراحة وباسعار زهيدة ، وبحلول العضو في النادى يكون على صلة

بزملائه فيتعرف عليهم ويشاطرهم مسراتهم كما يستطيع ان يمارس الالعاب الرياضية ، وقد ذكر لي بالمناسبة ان من تقاليد النادي قيامه بتنظيم حفلات (بالو) شهرية تضم عائلات منتسبي النادي •

ولما اطمئن صاحبي الى ان الايام التي سأمضيها في دلهي ستكون ضمن الموعد المقرر لحفلة النادي الشهرية تلطف بدعوتي مؤكدا بأن مجرد حلول رجل أبيض اللون اشقر الشعر في النادي سيكون مبعث دهشة ومفاجئة للاعضاء الذين لم يعودهم الحكم البائد ان يشاطرهم أفراحهم ومسراتهم رجل أبيض ، وأضاف قائلا سأتكفل بنفسي بتبديد دهشتهم فاشعرهم بأن ضيفنا (الابيض) صديق عربي ينتسب للعراق وليس من (البيض) الذين جثموا على صدورنا مئات السنين ! ••

ومن ثنايا حديثنا علمت بأن صاحبي تاجر كبير (للخام) والشاي ، فالخام الجيد الذي تنتجه معامل الهند الكثيرة بايدي وطنية قديرة اضحى يضاهي بجودته الانتاج الاوربي واستطرد صاحبي عن مظاهر التقدم الصناعي في الهند الحديثة بعد أن استغلها الاستعمار حقبة طويلة كمصدر هائل للمواد الاولية وحرم اقتصادها القومي من النمو والتطور ، وكيف كان مبدؤه الاساسي بأن لا تقوم في الهند صناعة ثقيلة تمكنها من صنع الآلات المنتجة وبذلك ستظل الهند معتمدة دائما على دول الغرب فيما تحتاجه من الآلات الانتاجية الثقيلة مما يمكن تلك الدول دائما من السيطرة التامة على الاقتصاد الهندي ولذلك قال نهرو « ان المسألة الرئيسية هي صناعة الآلات الكبيرة والى أن نتمكن من تحقيق ذلك لا يمكننا أن نقول عن أنفسنا أننا مستقلون حتى وان كنا نتمتع باستقلال سياسي » •

ولخطورة الموضوع عينت الحكومة الوطنية (لجنة تخطيطية) لكي تضطلع بمهمة تعيين المواد الضرورية في البلاد ووضع مشروع وطني خاص بتنمية البلاد تنمية اقتصادية سريعة ، وتمخضت جهود اللجنة عن مشروع السنوات الخمس ، وقد أولى المشروع اهتماما خاصا بشؤون الرى والزراعة نظرا لان البلاد كانت تعاني نقصا كبيرا في المواد الغذائية والمواد الخام نتيجة للحرب العالمية الثانية ٠

وقد بلغ النمو حده الاعلى بعد زوال النقص في المواد الخام التي تستخدم في صناعة المنسوجات القطنية والجـوت وعلى الخصـوص (الخام) الذي يستهلك الشعب الهندي كميات هائلة منه ، حيث ينطوى هذا الانتاج الغزير للمنسوجات القطنية على أهمية بالغة في حياة الفرد الهندى ومن ثم على الحياة الاقتصادية في الهند ٠

ثم أخذ يحدثني عن الشاي الذي تمتاز به الهند بأنواعه المختلفة وذلك تبعا لاختلاف الظروف الطبيعية في المناطق المتباينة التي ينتج فيها فمنه ما يزرع في سهول الهملايا وآخر في تلال جنوب الهند ٠

لذا تنفرد كل منطقة بانتاج نوع معين منه له مميزاته الخاصة التي يكتسبها لاختلاف المناخ فيؤثر عليه من حيث الطعم والنكهة ولم تكن الهند من الدول الهامة المصدرة للشاى حتى الحرب الثانيـــة الا أن أهميتها أخذت في الأزدياد في اعقابها حتى اصبحت من أهم الاقطار التي تصدر الشاى وذلك بفضل الجهود التي بذلها المخلصون العاملون على حل المشاكل التي تتعلق بانتاج الشاى وتصديره ، وأهم هذه الجهود محاربة الآفات الضارة ورعاية العمال الذين يعملون في مزارع الشاي وتعليبه وتغليفه بطرق فنية ، كاسكانهم وتيسير الخدمات الصحيـة

والثقافية كفتح المدارس لتربية ابنائهم وعرض الافلام السينمائية مجانا ، كما وفرت لهم الملاعب لكرة القدم والهوكي والملاعب الرياضية المناسبة لهوايات الشباب ، لذا تلاقى المسابقات التي تجرى بين أندية المزارع اهتمام العمام فيقبل على مشاهدتها أكبر عدد منهم ، كما اهتمت الحكومة الوطنية بتشريع القوانين التي تتفق وأحدث النظم الخاصة بضمان حقوقهم ومستقبلهم •

ويظهر ان صاحبي اللبق أدركه فن الحرفة وغلب عليه الطبع التجاري حين وجدني أعير حديثه الشائق عن تجارة الشاي اذنا واعية ، ظانا ـ وبعض الظن أثم ـ بأني سأنافسه في هذا المجال التجاري فاستدرك محذرا : ولكن لتجارة الشاي فن خاص لا يدركه غير القلة من التجار ذوى الاختصاص حيث يفترض في كل منهم أن يكون ذا ذوق خاص ليتذوقه وعين فاحصة ليتخيره وحاسة شم دقيقة ليميز نكهته •

وفات صاحبي بأنني كنت أصغى له فاتحسر على تمرنا العزيز بخصافاته المكدسة ومزارعه المهملة وأسواقه الخارجية المغلقة ! ••

حفلٌ راقص

عزيزتي هيفاء

اليوم حل موعد حفلة النادي الشهرية ، وبقدر ما كان صاحبي الهندى بارا بوعده معي كنت حريصا على تلبية دعوته •

ثقي يا عزيزتي بان ليس هناك أنقى من قلب الانسان وأطيب اذا ما قدر لهذا القلب ان يترك على سجيته ، فما أن توسطت الحديقة التي عبقت بعطور الهند الفواحة حتى خف لاستقبالي وأجلسني وسط باقة من أصحابه رصعت بنخبة من الفتيات الهنديات اللائي أضفى الساري بألوانه الزاهية وحريره الناعم عليهن رقة وطراوة •

وما أن قدمني اليهم كعربي من بلد صديق شاركهم تاريخهم الحزين طيلة قرون كانت مترعة كؤوسه بظلم الدخلاء ومآسيهم ، حتى استبشروا بلقائي وراحوا يتلطفون بي كضيف عزيز ، وبينما كنت اتجاذب أطراف الحديث مع من تعرفت عليهم ، لفت نظرى شاب وسيم الطلعة أنيق الملبس ذو طابع هندى صميم وكان يخفي هامته وجزءا كبيرا من جبهته بعمة هندية أنيقة نسقت بيد خبيرة يدلك مبلغ العناية بتصفيفها على أن لصاحبها من الفراغ ما يتيح له تضييع الوقت الطويل بتنسيقها بصبر عجيب ، كما وضع على عينيه نظارة سوداء داكنة أخفى بسوادها عينيه الواسعتين الحادتين ، وما كان يخفيهما لقذى أصابهما

وانما لفذلكة نزقة وذلك لكي يتنقل بعينيه حيث يروق لهما من وجوه الغيد الحسان اللائي ضمهن الحفل ٠

ولفت نظري فتاتان شقراوان جلستا على جنبيه تدلك بشرتهما على انهما استوردتا من أوربا ليتملكا عواطف الشاب المغرور بشبابه وماله ، وقدم لي فتحقق ظني بان صاحبنا لورد من لوردات الهند الذين تقلص ظلهم أمام أشعة شمس النظام الوطني ، أما ذلك الشاب الهندي المتأمرك بارتدائه قمصلة امريكية مزخرفة بصور رعاة البقر (الكاو بوي) في حفلة ضمت نخبة من العوائل ، فكأنه أراد أن يمعن في اظهار تأمركه للحاضرين بحيث أهمل عن عمد أزرار قمصلته ليغري الفتيات بصدره الفاحم كما سمح لنطاقه بالتراخي كي يستقر بنطلونه تحت محزمه وضمت يده كأسا كان يداعبها بظرافة على ما يظن والواقع انه والظرافة على طرفي نقيض وراح يترنح بصبيانية لا تتناسب وعمره ويتثائب احيانا ولم يجرب أن يضع كفه على فمه على الاقل ، ويميل على كتف امرأة أوربية عجوز شمطاء اغراه فيها شعرها الذى طلته الاصباغ الفنية فجعلته ذهبيا جذابا والعجوز المتصابية تداري صبيانيته وغروره بابتسامة باهتة كشمس الخريف ، ولكنها تنزل على قلب صاحبنا المغفل وكأنها بلسم شافي لغروره واشباعا (لدونجوانيته) ٠

فضقت ذرعا بتصرفاته وكرهت تفاهة حركاته وسفاهة أحاديثه لو لا ان بدد هذه التفاهات حديث فتاة هندية فارعة الطول ذات وجه ملائكي الطلعة جميل المحيا تحف به هالة من الشعر الاسود الاكث يوحي مجرد النظر اليها بقول الشاعر :

والطيب يزداد طيبا أن يكون بها   في جيد واضحة الخدين معطار

همست الفتاة في أذني بأنها تمج تصرفات هذين الشابين العابثين بحقوق الشباب فكان لادراكها وتحسسها لتفاهتهما تأثير عميق في نفسي مما ضاعف تقديري لشخصيتها •

وانطلقت انغام الجاز تنبعث بانغامه الغربية الشجية فتمتزج بالجو الرخي النسمات العابق بالعطور الهندية ذات النكهة المحلية المحببة فتنتشر من أطراف الساري المهفهف وتداعب ألوانه الزاهية التي تغمر النفس بالسرور والرضى ، وضاعفت هذه النشوة هبوب أنفاس الزهور الفواحة التي تحيط بالحديقة فدفعتني رغبة نزقة للرقص ، وهل ان اراقص غير جارتي وانا كتاجر لم أضيع صفقة رابحة في حياتي •••
ولما انتهى العزف انتهت به ساعة حلوة عدنا لمائدتنا ووجدت اللورد مدفوعا بغريزة حب التملك الذي سرى في دمه بحيث اضحى لا يروق لعينيه الشرهتين ان تقعا على أي ثمين يمتلكه غيره وسرعان ما تقدم لفتاتي يطلبها للرقص ولكنها رفضته مستخفة منه متهكمة به وهي تقول : نحن نخاف عليك يا لورد من غضب مودموزيل (باولا) و (أنيتا) ، وتراجع يجر اذيال الخيبة متغافلا كمن لم يدرك ما انطوى عليه كلام السيدة الهندية من استهانة ، وأنى لهؤلاء المتبذلين المستهترين من رهافة الحس وصدق الشعور ؟ •

وجلس امامي يتطلع الى وجهي بفضول كأنه راح يفتش فيه عن سر التجاوب بين هذه الفتاة العنيدة وبيني ، أهو يكمن في العينين الصغيرتين الباردتين أم استقر في الوجه الجليدي أم في تل (سيرانو) الذي توسط هضبة وجهي باصرار •

وأكبر ظني أن عينيه عادتا حائرتين دون ان تظفرا بطائل ، ولقد

فات صاحبنا المغفل بأن عقل المرأة لو شاء لجعل من الحجارة ماسا تعلقه في جيدها ومن القرد غزالا تضمه لصدرها .

وكان من نتائج تعرفي على هذه السيدة المثقفة أن تشعب الحديث بيني وبينها عن تاريخ الهند وتقاليدها وكفاحها ، ثم جرنا الى حديث شائق عن الحكم المغولي ، لم يكد ينتهي حتى وجدت نفسي مشوقا الى زيارة أعظم أثر اسلامي خالد خلفه المغول الا وهو تاج محل ...

مدينة اكرا

عزيزتي هيفاء

لقد قلت لك في رسالتي السابقة بانني أصبحت مشوقا لزيارة مدينة (اكرا) التاريخية التي لم تكن لي فكرة عنها ولا عن تاجها ٠

وسأحدثك عن سفرتي الممتعة التي غمرت نفسي بعجائبها ومباهجها ، والعالم يا عزيزتي زاخر بالعجائب والمباهج ، غير اننا لشلل في تربيتنا وضعف عام في أساليب دراستنا ، يصدمنا الفشل ونرضخ للمشكلة فنقبع في بركنا الآسنة كالضفادع حتى نثقل ـ من حيث لا ندري ـ على السامع بنقيقنا ونخال أنه نغم شجي ٠

وننسى أن أرضنا الطيبة تفيض بالخيرات ، فبالاسفار نستطيع أن نتعرف على أسرار جمالها ، فهناك جبال جرداء ووديان تزينها مروج خضراء وغابات كثيفة وحقول منسقة لطيفة ، والى كل ذلك هناك انسان يشاركنا مشاعرنا الانسانية ويحاول جاهدا أن يساعدنا لحل مشاكلنا الآنية ٠٠٠

وقد لمست هذه المشاعر الرقيقة بين أخواني الهنود الهادئين الصابرين صبرنا على المستغلين ، اذ تعجبين لو رأيت كيف كان المستغل في الهند يستنزف القوى البشرية ويعتصر الخيرات الطبيعية ليحولها الى ثروات وأرقام خيالية ٠

ففي الصباح الباكر استأجرت سيارة وزودني الفندق بالغـذاء وصحبت صاحبي الهندي واتجهنا لمدينة أكرا ، وراحت السيارة تطوى بعجلاتها النهمة طريقا معبدا مزدانا باشجار الجوز الباسقة لا جديد في هذا الشارع الرحب ، اذ نستطيع ان نشاهد مثله في بغداد وفي أكثر عواصم الدنيا الا أن الذى لا نستطيع أن نجده في غيره هو أسراب القردة المرحة التي تنتشر على جانبي الشارع فتبعث المسرة في النفس وتدهش الناظر بخفتها ورشاقتها بتسلقها أشجار الجوز الشامخة لتنشد في ثنايا أغصانها الطمأنينة والامان •

وما أن انقضت ساعتان ونحن نراقب هذا الحيوان الذكي حتى انعطفت سيارتنا نحو دار الضيافة واظنك لم تسمعي بهذا الاسم من قبل فلأوضحه لك ، انه عبارة عن دار رحبة تحتوي على المشتملات الضرورية شيدته الدولة في منتصف الطريق ليستقر فيه كل مسافر يجتاز المسافة بين دلهي وأكرا فينال قسطه من الراحة ويتزود بالماء ويتناول الطعام ، وبعدها ارتشفنا الشاى الذى قدمه لنا شيخ طاعن في السن يقوم بحراسة الدار مع زوجه وأبنه •

واصلت سيارتنا رحلتها نحو أكرا يدفعني الشوق الى استطلاع اسطورتها العجيبة وسر خلودها التي تداولها الناس كثيرا •

فمنهم من روى لى الاسطورة بأن الامبراطور العظيم أكبر الذي استهل حكمه بمحاربة الهندوس الذين استقلوا بدلهي فهزمهم وأعاد سلطان المسلمين عليها ، فاستعادت دلهي مجدها وغدت سيدة المدن بعد أن تركتها غارة تيمور حطاما تحيط بها الفاقة ويخيم عليها العوز وتتردد في جنباتها الآهات •

ومن معايب الامبراطور أكبر أنه كان ناري الطبع متقلب المزاج لذا ناءت الهند من تبعات طبعه ما اثقل كاهلها وأدت ضريبة غضباته ثقيلة باهضة ، فسجل التاريخ قصصا محزنة عن غضباته وكانت أقساها وأعنفها غضبته على مدينة دلهي ، حينما حاول شخص أغتياله وفشلت المحاولة الا أن الامبراطور تضايق وغضب فقرر أن يؤدب أهل دلهي كلهم لذا أمر بنقل عاصمة ملكه الى مدينة اكرا ، وقاست دلهي لهذا القرار الارتجالي الجائر أزمة اقتصادية حادة اذ قضى هذا القرار على تجارتها بصورة عامة كما خسرت الصفقات التـي كانت تعقـدها مع البلاط والامراء والحكام .

ومن المتوقع أن تنتعش أكرا على اطلال محنة أختها دلهي .

هذه يا عزيزتي الخطوط الرئيسية لاسطورة أكرا التي لا شك أنها شوقتك للاطلاع على نهايتها التي سأقصها عليك اذا ما استجليتها من معالمها الباقية وتاجها الخالد .

بينما كنت اتطلع من وراء الغيب لصور الماضي البعيد وأرسم في ذهني خطوط أسطورة هذه المدينة العجيبة وسيارتنا تطوي الطريق الطويل الجميل ، فاذا بها تدخل مدينة أكرا وتنعطف بنا نحو فندق يزدحم بالمسافرين المنتشرين في حديقته الامامية وفسحته المرمرية وجلهم من شيوخ وكهول الاوربيين والامريكيين الذين جبلوا على التجول في انحاء العالم تطلعا الى معالمه أو طلبا للاستجمام ابتغاء للراحة ، فالحياة في الصبا رياضة ودراسة وفي الشباب جهاد ومال وبنون واذا تخطوا الخمسين نفضوا أيديهم من المسؤولية وبدأت الحياة هادئة رضية خفيفة

القيود بالنسبة للعمل والمال خفيفة الاعباء أيضا بالنسبة الى البنين والاسرة •

هؤلاء المتفائلون يا عزيزتي يعرفون كيف يتصرفون بأوقاتهم وأموالهم فلو زرت مصر اذن لرأيتهم يتسابقون معك للانحدار (لوادي الملوك) والارتقاء للاهرامات ، ولو طفت بروما لوجدتهم يزحفون زرافات ووحدانا لكنائسها ، ولو دخلت باريس لعجبت كيف سبقوك لمتاحفها و (بانتيونها) •

ولو شاء لخيالك ان يقارن بينهم وبين آبائنا وأمهاتنا لقرأت صور التشاؤم مرتسمة على جباههم في هذا الدور ، فمجتمعنا المتعنت بأحكامه حكم عليهم بالاتزان والتقشف من الحياة ومباهجها وزينتها فيركن في بيته بهدوء ويسير باتزان ويحرم نفسه من متع الحياة وطيباتها فيصارع الزمن مترقبا الموت والموت يترقبه ويشعر بأنه بعد كده وجهوده قد انتهت حياته بهذه النهاية الفاشلة •

بينما ينمي الاعتقاد عندهم بأن الحياة تبدأ في الخمسين • وهذا الفرق بين نظرتنا ونظرتهم للحياة ولا شك يا عزيزتي بأن الغبن واضح والبون شاسع بين النظرتين •

قِصّةُ تاجُ محلّ

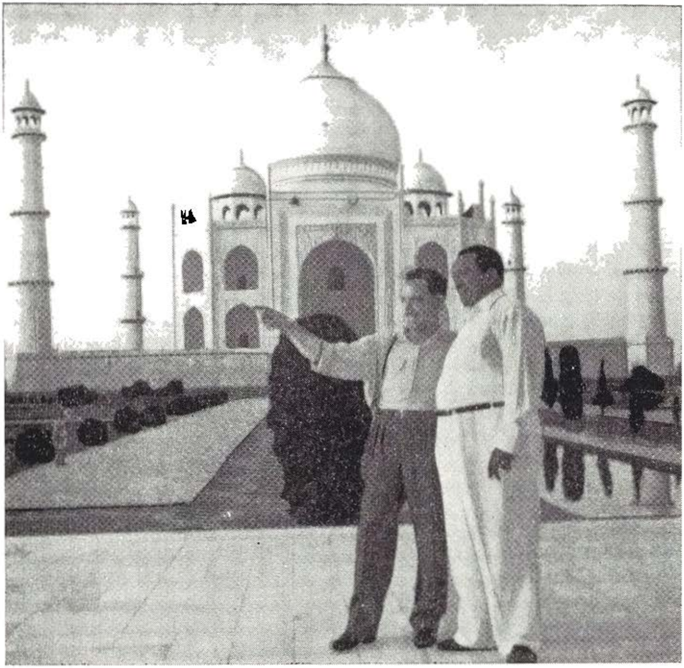
عزيزتي هيفاء

الآن سأقص عليك قصة هذا التاج الخالد الذي نزوره لنروي نفوسنا الصادية ونشبع نظراتنا المنهومة الى قبابه الرخامية النقية ثم نتخذه سلوى ومتعة ، ولو تلمست قصة بنائه لعلمت بأنها قصة محزنة ذاق مرارتها عشرون الف عامل هندي وصيني طيلة ثمانية عشر عاما صبرت نفوسهم الزكية وتحملت كواهلهم القوية هذه الحجارة الثقيلة التي جلبت من شتى أنحاء البلاد وحفرت نقوشها ايادي أقدر الفنانين والمهندسين والبنائين ، وأنفقت ثروات كانت تغتصب من قوت الشعب ليرصعوا القبر بالماس واللآلىء النادرة والذهب الخالص ولتشبع ببهرجته رغبة (شاه جهان) ولتخلد حبه ووفاءه لزوجته (ممتاز) التي اشتهرت بجمالها الاخاذ وحسنها الفريد ، والهاه هذا البناء عن واجباته نحو شعبه ، فأخذ يتجول ليلا ونهارا بين الواح المرمر البيضاء التي تغلف البناء من الداخل والخارج ويشرف على حدائق التاج ونسى أن هناك عيون المستعمر تسقط اخباره وتترصد تصرفاته وكم كان يسرها انصرافه عن حكومته وشعبه وبذخه من خزينة ملكه وكان لذلك المستعمر المتربص جواسيسه وسفراؤه الذين يستطيع بهم أن ينفذ الى مآربه وأغراضه .

فهذا البذخ وذاك الاسراف الذي أدهشهم وضاعف اطماعهم وهذه الكنوز التي اغرق الاباطرة بها قصورهم ونسوا الشعب في فقره المدقع ، وكما يقول المثل العامي (من عرف بين الناس خص بالبلاء) وهكذا عرفت الهند بين الناس بأنها ذات تربة طيبة وسماء سخية واياد قوية وخيرات وفيرة فطمع بها هؤلاء الناس واستغلوا أرضها وسماءها وأياديها وخيراتها استغلالا لم ينتفع به الشعب من قريب أو بعيد ••• ومن هذه الثغرة تكررت زيارات السفراء ومجاملات الشركات حتى نالت الامتياز وتلاها جيشها الغازي فاذا الانكليز سادة البلاد واذا ملوكها اذلاء وشعبها تعس فقير •

الواقع يا عزيزتي ان تاج محل كفن هندسي خالد يستحق عناء السفر اذ هو الذي جلب الشهرة لمدينة اكرا وأعتبر رمزا للحب والوفاء فالزائرون يتوافدون اليه من جميع انحاء العالم اذ ليس هناك فن معماري تعدد فيه الوصف والتصوير والرسم والكتابة مثلما امتاز به تاج محل •

فالزائر لهذه الدرة المعمارية يدخلها من مدخل جميل وأنيق وما أن يجتاز قنطرته الرئيسية حتى يفاجأ بمنظر فني تتوق النفس للاقتراب منه وترغب بالدخول اليه ، ولكن على الزائر أن يجتاز حديقة منسقة منبسطة يتوسطها فرع من نهر (الجومونا)، تكتنفه من الجانبين شجيرات السرو السوداء لتذكر الناس بان التحفة الضاحكة التي يقصدها شيدت بالحزن والبكاء على الحبيبة الوفية ، والحديقة المنقسمة الى قسمين آية في الذوق والتنسيق يفرش أرضها الواسعة بساط ندى زمردي تحنو



المؤلف في تاج محل

عليه الاشجار الخضراء الوارفة الظلال ، وتبتسم على جوانبها انواع من الازهار العابقة .

يمر فرع النهر وسط التاج مرورا عجيبا تحت البناء الفخم الذي تعلوه خمس قباب قبة رئيسية في الوسط ، وأربع صغار طوال من اطرافه التي شيدت في بلادنا منها الكثير وكلها مستوحاة من خيالنا الشرقي المتشبع برؤيا شجرة النخيل الفارعة الجميلة ، أما الشرفات والابواب الخارجية فكلها من المرمر النقي المنحوت نحتا دقيقا والقوس المحيط بالباب سجلت عليه آية قرآنية نحتت على المرمر الاسود بخط عربي غاية في الفن .

ويحكى أن الملك (شاه جهان) رمز الى دمعته السخية وقد استوحى هذه الفكرة من نفسيتنا الشرقية المطبوعة بطابع الحزن والبكاء على الاطلال على حبيبته الراحلة بنقطة ماء واحدة تقطر من قمة القبة الرئيسية من الداخل على المقام المبني تحتها والمحاط بأسماء الله العظمى الله ، الصمد الله ، الاحد ، الباري ، القهار ، الجبار ، الكريم ، الرحيم ، والذي زخرف سطحه باشكال من الزهور والاشجار كلها صنعت من المرمر المنحوت المزخرف ، نقطة واحدة كل أربع وعشرين ساعة تخليدا لدمعته الحزينة عليها ولساعة موتها ، ورجوت صاحبي ان يرشدني عن ساعة نزول الدمعة فأجاب بحسرة ، لقد حيرت الدمعة حكام الهند قبل مائة عام وذهب الفضول بهم مذاهب شتى لمعرفة سر صعودها وهبوطها في ساعة معينة ، فأحضروا لذلك الخبراء والمهندسين ونزعوا بعض الالواح المرمرية من الجدران والقبة حتى عثروا على مضخة صغيرة للماء وقناة ... ولما لم يقفوا على سر صعودها

وهبوطها أعادوا كل شيء الى مكانه ولكن الدمعة الرمزية توقفت عن الانهمار ...

أخذني العجب الشديد فانتحيت جانبا وجلست في زاوية اتطلع الى رمز الحب والوفاء وهما أجمل وأندر عاطفتين في الحياة ، وما من شك بان سعادة المرأة والرجل تستقر اذا ما شيد كل منهما للآخر تاجا من الحب ومقاما من الوفاء تنعم بهما النفس ويرتوى القلب .

فهذا الملك السعيد ما أقدم على هذه التضحية لبناء هذا التاج الذي بذل له النفس والنفيس لو لم يكن هناك تاج من الحب شيدته زوجته وعطرته بزهر وفائها الفواح فاسكنته تحت تاج السعادة وأنزلته منزل المسرة .

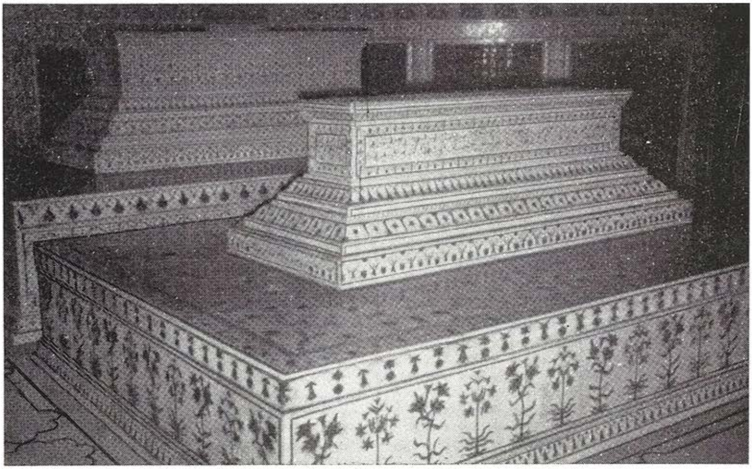
ويروى ان الملك العاشق قد أمعن في الوفاء والتضحية التي كلفته أخيرا عرشه وحياته ، وذلك حينما أدرك ابنه الواعي وتحسس سخف أبيه وبذخه وسفهه الذي كاد أن يودي بخزينة الدولة الى هاوية الافلاس ، فرجا أباه أن يكف عن هذا الاسراف على هذا المشروع العقيم الذي جمدت به أموال الدولة وضاعت به جهود الشعب ، ولكن أبى للملك العاشق أن يصغي لانين الشعب وان يتحسس مشاعره لذا راح يمعن في غيه ويجد في اسرافه فضاعف العمال ، فلم ير أبنه بدا من ردعه بأن يحجره ليحد من أفراطه وتصرفاته الصبيانية ولكن الغريب في أمر هذا العاشق أن ابنه لما سأله عما يحب ان يحققه له ليرفه عنه في سجنه فرجاه الأب الحزين أن يفتح له نافذة يطل منها على هيكل تاج محل فاستجاب الى طلبه وقضى بقية حياته يناجى رسم التاج .



شاه جهان



ممتاز



ضريح ممتاز وبجانبـه ضريح زوجها

وكنت وانا قابع في زاويتي أراقب النـــاس المرحين ينتثرون في ساحة التاج والقمر يرسل اشعته الفضية على رخامه الشفاف فيرجـع انعكاسات براقة يضاعف روعتها سكون المحل وكان هنـــاك يجلس عشاق ساهمون يغترفون من هذا الجو الشاعري ليتعاهدوا أمام رمز الحب والوفـــاء الذي شـــيده قلب محب وفي ـ والحب دوما يصنع العجائب والمعجزات ! ـ وبينما كنت في سهومي اتجاوب وهذه المشاعر فاذا بصوت ساحر من بعيد ينشد أغنية هندية ويتابعه عازف الناي ويردد اللحن شباب ظرفاء فاتجهت صوب الصوت وبوحي من شرقيتي الاصيلة أصبحت اتحسس للغناء الهندي واستعذبه ، وقد يكون مبعث هذا تلك الشكوى الدفينة بين الحانه وذاك البكاء بين نغماته فسرت نحوه ووقفت في ظل منارة أنعم بحبور هؤلاء الشبيبة المرحة وما هي الا لحظات اذا بصبي يتجه نحوي ويسألني بلغه انكليزية مؤدبة عما اذا كنت قد فقدت حقيبتي وبسرعة قلت نعم نسيتها في تلك الزاوية فقدمها الصبي ووجهه يطفح بالبشر وحينما حاولت ان ارد له جميله بأن انفحه شيئا من المال ، ابتسم معتذرا بلطف وقال اكتب لي على هذه الورقة بالعربي لأريهـا لوالدى فأبي يحب العرب وضاعف محبته يوم راح يطالع تاريخكـم المسالم في كتاب زعيمنا نهرو وكيف كنتم تعاملون الافرنج في حروبكم الصليبية وحضرني قول شاعرنا العربي وترجمته له •

ملكنا فكان العفو منا سجيـــة   ولما ملكتم سال بالدم أبطح
فحسبكم هـذا التفاوت بيننا   وكل أناء بالذي فيه ينضح

فأبتسم وقال أنتم اخواننا في التاريخ والجهاد ، وكتبت له الورقة وضغطت على يده الطرية وأنا أكاد أعانقه واعانق البشرية التي تجـود دوما بالامناء وتزخر بالطيبين •

نضال المرأة الهندية

لتحرير بلادها

عزيزتي هيفاء

اكتب لك من دلهي المدينة ذات الجذور التاريخية العميقـــة والتقاليد القديمة والاساطير الخيالية والابنية العجيبة .

ان امتزاج القديم بالحديث يبرز باجلى مظـاهره هنـا ، اذ من العسير ان يتصور المرء هذه الجيرة المحيرة لكل من دلهي القديمة ودلهي الجديدة ، فدلهي الجديدة تمتاز بأبنيتها الحديثة المنسقة ، ومن ابرزها وافخمها دار البرلمان ، انه لفن معماري عجيب .

اما دلهي القديمة ففيها (منارة القطب) ، التي تعتبر من عجائب الفن المعماري الخالد وهي التي تقف شامخة وسط اطلال آخر عاصمـــة للهندوكيين والتي أصبحت أول مدينة اسلاميــة بعــد ذلك الحكـم الهندوكي .

ان هذه المنارة الشامخة والتي يبلغ ارتفاعها مائتي وثمان وعشرين قدما كان قد أكمـــل تشييدها اول حاكم مسلم من حكام دلهي وهي تحتوي على خمسة طوابق من الحجارة الرمليـــة الحمــــراء التي تضفى هذا اللون الغريب وسط هذه الخضرة المتناثرة في ثنايا الاطلال روعــة وخشــوعا ، وتحيط بهــا شرفات ذات زخارف مدلاة نقشت

عليها آيات من القرآن الكريم مما يدل على مهـــارة في النقش تبعث الغبطة في النفس •

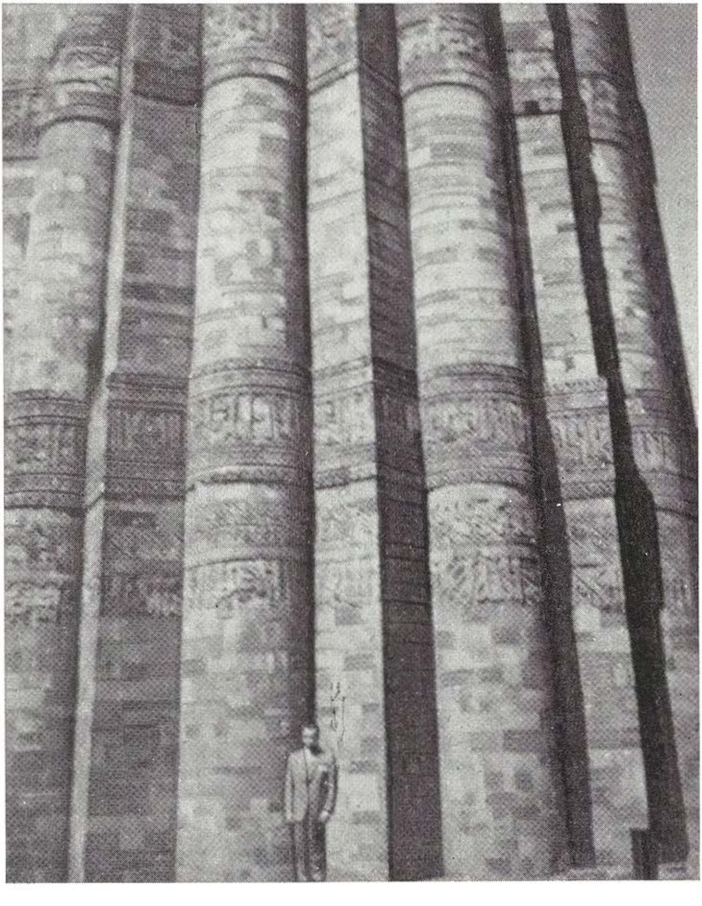
وقد مضى على انشاء هذه المنارة التي يوحي شموخها بعظمـــة مملكة زائلة ذات تاريخ خالد سبعمائة وخمسون عاما •

ولما ارتقيت السلم من جوفها ورحت اتطلع من عل في احدى شرفاتها راعني منظر الجموع المتوافدة من السواح وأهل البلد ينتشرون في هذه البقعة الجميلة ليمتعوا انفسهم بجمال منظرها وليرفهوا من عنـاء العمل ، فمنهم من يتناول غذاءه ويرشف الشاي وسط جمع من الاهل والاصدقاء في جو رحيب من المرح والانطلاق •

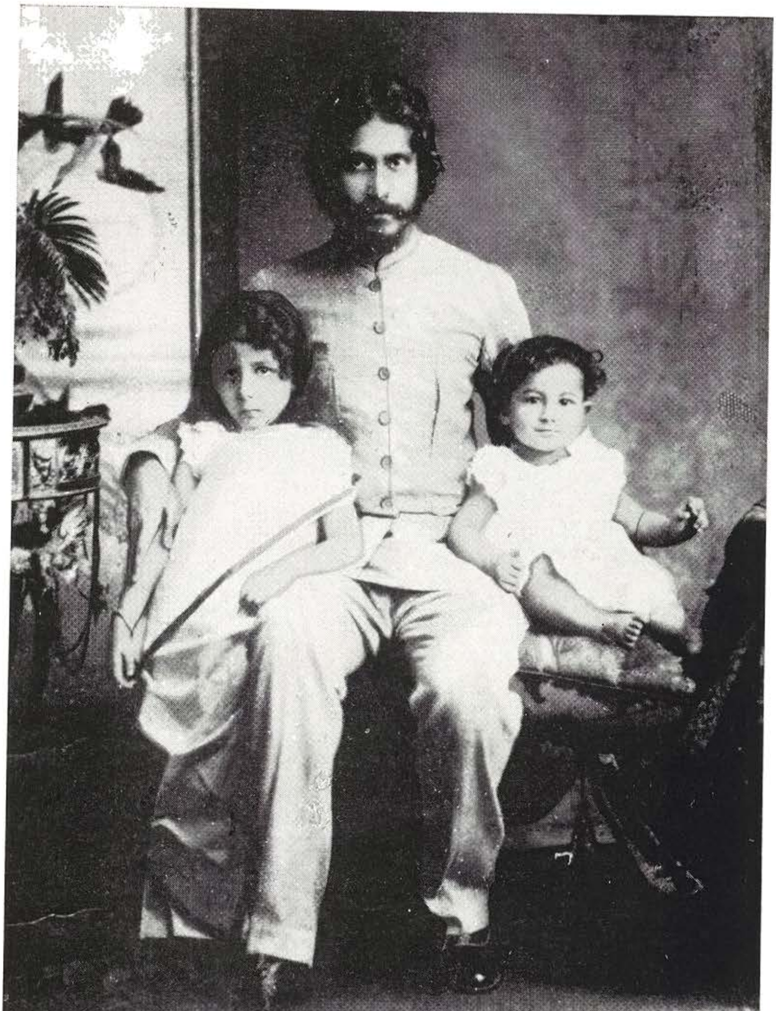
ومن الآثار العجيبة التي تشوقت لزيارتها في هذه المدينة (القلعة الحمراء) وهي بناية مزخرفة لها شرفات من المرمر المنقوش تحف بها حدائق لا زالت غناء بفضل ما يبذل لها من عناية للمحافظة عليها تتخللها نافورات ومجاري مياه عذبة وعلى الرغم مما نزل من عوادي الدهـر وما أصابها من تصديع وأضرار بقيت هذه القلعة رمزا ناطقـــا لما كان يحوى تاريخ هذه المدينة من دلائل المجد ومعالم الرفعة •

وقد قدر لتأريخها المجيد أن يبعث ثانية بفضل جهاد ابنائهـــا وكفاحهم في سبيل الحياة ، وقد حدثتك فيما مضى ان في طليعة هؤلاء الابرار زعيمهم الخالد غاندي •

ويجمل بي اليوم ان أحدثك عن ابن بار آخر جاهـد في سبيل الهند جهادا مضنيا حتى تخطى الحدود الضيقـــة فانطلق الى رحاب الانسانية وآفاقها الواسعة ، ذلك هو شاعر الهند العظيم طاغور •



المؤلف بجوار منارة القطب



شاعر الهند العظيم طاغور مع ابنته وولده

وليس أدل على روحية طاغور الطيبة من قوله عن مؤلفاته (ان ما يعانيه الناس من شقاء قد امتزجت به جميع مؤلفاتي) ومن هنا ندرك ان طاغور لم يكن ذا اتجاه فردي فتفكيره عام شامل وحياته متعددة الوجوه والنشاط ! اذ ان الحياة في رايه تعنى اكثر من مجرد الوجود بل انها سير ابدى وحركة لا تنقطع •

وليس هناك من شيء يسمو بالانسان ويحرره من جميع العوائق الضيقة الا عندما يبلغ احساسه مراتب الانسانية الشاملة •

لذا كل مشكلة تتعرض لها البشرية تحرك في طاغور أحاسيسه وتشحذ هممه المتوهجة للنضال في سبيل القضية الانسانية والمحبة للبشرية ، فكانت روح طاغور ثائرة ضد الظلم ولذا كان يحمل كغاندي فكرة ازالة المنبوذين من المجتمع الهندي كدعامة في النضال القومي ، فناضل ضدها اذ كان يؤلمه أن يرى قومه يعيشون في ظلمة الطبقات فهؤلاء المنبوذون هم الذين حرمتهم التقاليد من أن يمارسوا حقوقهم الطبيعية المشروعة وتهبها للبقرة المقدسة !•• كانوا الباعث الاول لايقاظ وجدانه وهل من العجيب أن يغضب انسان كطاغور ذي الذهنية المتوقدة الشاعرية الرائعة ؟ •

لذا أخذ يثور بشدة مع الانتفاضات السياسية والاجتماعية في بلاده ، تلك الانتفاضات التي اصبحت جزءا من نضاله وبعضا لا ينفصل من تفكيره ، لذا فقد ثار مع المصلحين وكان أكبر داعية لتحرير المرأة الهندية التي بقيت حقبة من الزمن لا تستطيع أن تقوم بأي عمل تجاه بلادها وذلك لحرمانها من كثير من حقوقها ، وقد جاء هذا الحرمان كنتيجة لمركزها الضعيف في مختلف الطوائف الهندية •

(فالهندوسية) وهي ديانة أكثرية الشعب الهندي لا تعترف بمكانة المرأة ، اذ أن الرجل يعتبر الاها وما على المرأة الا أن تعبده •

وأما المسلمة فبالرغم من أن دينها السمح قد منحها كثيرا من الحقوق الا انها مع الاسف لم تتمكن من أن تفيد ولا أن تستفيد اذ تأثرت بمؤثرات محيطها فانصهرت بعادات الهندوس •

(والمجوسية) وهي عابدة النار بفضل تسامح زوجها واتساع معارفها منحت من الحقوق ما كانت تحسد عليها ، حتى تبوأت مركزا اجتماعيا راقيا يتناسب وامكانياتها فأصبحت كالاوربية في التمتع بحقوقها وانطلاق حريتها وتحرر عقليتها •

وفى الهند نوع جديد من المرأة المولدة وتدعى (الانكلو انديان) وهي تعاني احتقارا اجتماعيا قاسيا ، حيث لاذنب لها بذلك •

الا أن الوعي الاجتماعي الخلاق وبزوغ نجم طاغور بدد تلك السحب الرجعية المظلمة ، فأحدثت تعاليمه التي استقاها من أوربا ضجة كبرى في صفوف المجتمع الهندي المتحفز للانطلاق والانعتاق ، ولم يكتف طاغور باسداء النصح نظريا بل طبقه عمليا فدفع بأهل بيته من النساء الى المجتمع الهندى ليعملن في حقوله الاجتماعية الحيوية وكان لخروج أهل بيته على التقاليد الهندية بمثابة النور الذى أنار السبيل أمام المرأة الهندية فاندفعت بطموحها لتشارك المجتمع في قضاياه الكبرى ومشاكله العامة •

ولما اقتنعت المرأة الهندية بعدالة قضيتها ، راحت تضاعف نشاطها فوقفت صفا واحدا مع غاندي في حركته الوطنية لتنادي معه (بعدم



السيدة فيجايا لاكشمي

التعاون السلمي) وكانت هذه الدعوة أول تجربة قاسية ذاقت بها المرأة الهندية ضروب العذاب وهوان السجون •

وما أن نالت الهند استقلالها حتى اكتسبت المرأة حريتها فراحت تشارك الرجل في حل الامور السياسية المعقدة وطالبت بحق الانتخاب فنالته بجدارتها وثقافتها وجهادها الوطني السخي •

لذا اعترف الدستور الهندى الحديث بكثير من حقوق المـرأة ، ولا يأخـذك العجب أيتها العزيزة اذا ما قلت لك بأن خمسا وسبعـين مليونا من النساء قد ســاهمن فى الانتخابات ، وبودى يا عزيزتي أن أذكر لك لمحة خاطفة عن حياة بعض النسـوة اللواتي كان جزاؤهن أن تسند اليهن مراكز مهمة فى الدولة الهندية الفتية اذ أن فى استقرار حياة المجاهدين والمصلحين قدوة لتقويم نفوسنا والحد من أنانيتنا •

فأول ما أذكر السيدة (فيجايا لاكشمي) التي اعتبرت السيدة الاولى فى الهند لتحررها ونضوجها السياسى ولماضيها النـاصع فى الكفــاح الوطني ، ولما مثلت السيدة لاكشمي بلادها فى الولايات المتحــدة عام ١٩٤٤ راحت تبسط قضية استقلالها وأخذت تتنقل من بلد الى آخـر وكانت تملؤها الثقة ويعمر قلبها الايمان بحق قضيتها فجاهدت جهاد الام المؤمنة بعدالة حق أبنائها فى الحياة •

وقد بلغت ذروة المجد عندما اجتمعت مع أقطاب الدول العظمى في (سان فرانسيسكو) لبحث مسائل نزع السلاح وحق (الفيتو) ، فكانت السيدة لاكشمي تقف بباب حجرة الاجتماع لترفع صـوت الشعـوب المحكومة والدول المغلوبة عاليا ولتعبر عن حق وطنها في الحرية والتقدم

والعيش بسلام فصرخت قائلة : (انها تعبر بصراخها عن حق ستمائة مليون من المستعبدين في آسيا) •

وهكذا نرى ان حياة هذه السيدة المناضـلة قضيت بين السجن والكفاح السيـاسي ودفعت ضريبتها من الجهـد والارهاق وتحمـل المسؤولية ، ومن الجدير بالذكر أن السيدة التي دخلت المعترك السياسي من أوسع أبوابه حتى كان لها صوت مسموع في الاندية الدولية ، ولم تكن تغفل عن نواحي الحياة الاخرى ـ كامرأة ـ بما في هذه الحياة من رقة ونعومة وجمال

ثم لأحدثك عن الاميرة (راجو ماري) التي ولدت في قصر أبيها ، الا ان روحها الانسانية العالية لم يفسدها ذلك البذخ والترف ولم يغرر بها الغنى وانما راحت تتلقى العلم بشغف وشوق محموم وأوقفت راحتها وساعاتها لخدمة المصلحة العامة ، وهكذا استمرت في جهادها المضني الطويل لتنفذ برنامج غاندى الذى كان لشخصيته الطاغية الاثر الاكبر على سلوكهـا الاجتماعي ونضوجها السيـاسي يوم كانت سـكرتيرة له طيلة سبعة عشر عاما حتى غرس في عقيدتها (بأن الهند ميدان واسـع ينتظر الخدمات من أبنائه المخلصين) ولما أيقن الزعيم غاندى انها أهل لثقته أخذ ينتدبها لتمثيله شخصيا في مهامه الدقيقة ولتقوم مقامه في بعض مواقفه الحرجة في جهاده الطويل •

وأرادت الحكومة الوطنية أن تجزيها حق كفاحها الطويل ولتعترف بفضلها فأناطت بها حماية الملايين من أبناء الهند والحفـاظ عليهـم من الامراض والعلل فعينتها وزيرة ـ للصحة ـ •

معالم دہلی



بنايــة البرلمان في دلهي

عزيزتي هيفاء

في صباح أمس دب في جسدى نشاط غير اعتيـادى ولا أدري مبعثه أهو توقد ذهني لاشواق متفاعلة التهبت في كياني نحو وطني وفيه أهلي وأصحابي فعزمت أن أبدد هذا النشاط باطلاعي على معالم دلهي٠

لذا زرت وصاحبي بناية البرلمان التي تعد أعجوبة فى الفن المعمارى ثم زرت المتحف الكبير ، ولم أنتبه الا على صاحبي وهو يشير بيده الى قصر الزعيم الكبير نهرو فاستنشقت شذى العبقرية والرجولة تعبق بهما أجواؤه ٠

وفاتني يا عزيزتي أن أحدثك عن حادث طريف وقـــع لي في دلهي ، فبينما كنت أجتاز باب الفندق التي غرست على جانبيها شجرتان باسقتان من أشجار السرو وكان بجانب أحديهما شاب هنـدى فارع الطول وسيم الوجه لولا أن لحيته الكثة السوداء أخفت قسماته الجميلة وقد تزيا بزي درويش زاهد ـوما أكثر الزهاد الدراويش فى الهند ـ وهذا الزهد الهندى ترجع جذوره للنكبات السياسية والمجاعات المهلكة التي مني بها الشعب الهندي المغلوب على أيدي مستغليه ومن أمثلتهـا مجاعة (البنغال) التي صرخ لهولها الضمير العالمي ٠

رأيت هذا الدرويش واقفا بقامته المديدة وماســكا برمح طويل

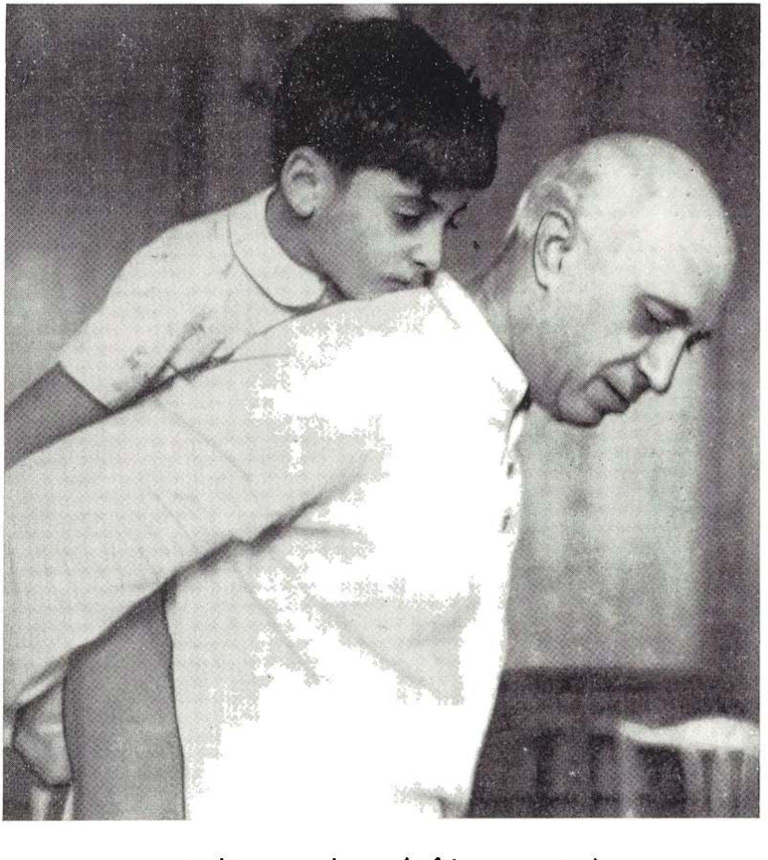
فاجتزت الباب محاذيا للرمح ولم يلفت نظري موقفه هذا ولكن صاحبي الظريف حين أدرك بأني لم أعرف سر هذا الرمح أبت عليه طبيعته الهندية الطيبة الا أن يداعبني فقال لي على الفور هل لك أن تصعد نظرك الى رأس هذا الرمح فرفعت بصري وهالني أن أرى أفعى كبيرة وعجبت كيف أضاع هذا الشاب عمره الثمين بترويض هـذا الحيوان الشرس اذ تركها على الارض وزمر لها بمزماره فاذا بها تلتف حول سلة من سعف النخيل كان بداخلها أفعى آخر يخرج بين حين وحين رأسه عاليا من السلة ويتمايل جيئة وذهوبا على صوت المزمار ومن صفات الافعى أن لها أذنا موسيقية تستعذب النغم كأنها عاشق معذب •

وبينما كنت أمتع عيني وأنا مأخوذ بهذا المنظر الغريب اذا بأحد الواقفين يرمي بقطع من النقود الصغيرة ، وكأن الدرويش أراد أن يضاعف حماس المتفرجين ودهشتهم فأتى بابن عرس وقربه من الافعى الكبيرة فنشبت بينهما حرب عنيفة لأنها تمثل الصراع نحو البقاء •

فراعني هذا المنظر المرعب اذ أنني علمت بأن شعوب الهند الفطرية تعبد الافاعي حتى ليدعها تلدغه دون أن يجسر على قتلها ولكنني لم أكن أعلم بأن منهم من يروضها على الحرب ليتخذ من هذا الصراع والعذاب وسيلة لمعيشته وملذاته •

فقال صاحبي لاتعجب لطريقة معيشة هذا الشاب الغريبة القاسية فهذا جاهل معذور لفقره وجهله ولكن ماعذر الدول الرأسمالية التي تغمس لقمتها وملذاتها بدماء الشعوب وتصرف بضاعتها بتحريضهم على الحروب •

وسار بي التاكسي متجولا بشوارع دلهي فرأيت الصبية والشباب



شري جواهر لال نهرو يلعب مع حفيـده



فقير هندي

يرتدون ملابس بسيطة لانستطيع أن نتحقق من ألوانها كمـــا لانرى قسمات وجوههم الباسمة المرحة لكثرة الالوان التي تراكمت عليها فهي تصـرخ باللون الأحمر القاني والأصفر الفـــاقع والأخضر الزاهي والازرق الداكن وكل منهم يحمل بيديه آنية أو قنينة زجاجية مملوءة بالماء الملون ويترقبون المارة ليرشقوهم بالاصباغ •

وما أن مرت سيارتنا بجوارهم حتى رشقـــوها بالاصباغ ولولا رادع الزجاج لاصبحنا بهذه الالوان صورة فنية من صور (السريالزم) تعجز عن رسمها ريشة (بيكاسو) •

واستغربت لهذه العادة الغريبة وما أكثر غرائب العادات في الهند وسألت صاحبي عن سرها فقال ان لهذه العادة اسطورة تأريخية دينية تلزم كل انسان ان يغتسل في ماء النهر المقدس ليتطهر من خطـــاياه (من منا بلا خطيئة) وبمرور الزمان تحرفت هذه العادة وتطـورت حتى أخذت شكلها الحالي المرح •

وتجولت سيارتنا بشوارع دلهي الجديدة الواسـعة وحدائقهـا المنسقة وعماراتها الفخمة فهي على نقيض دلهي القديمة التي تتزاحم فيها الطبقات الفقيرة وتتلاصق الدور البالية بأزقتها الضيقة القذرة حتى ليصبح مألوفا لدى الزائر لهذه المدينة أن يرى اخطبوط الفقر والجهل والمرض جاثما على الاجساد النحيفة ليمتص منها آخر قطرة من دمائهم السوداء التي استنزف قوتها الطامعون منذ مئات السنين •

وبعد ان كنا نشاهد شوارع دلهي الجديدة تزدحم بأحـــدث السيارات الانيقة التي صنعت الكثير منها أياد هنديـــة مبدعـة تؤمن بمستقبلها وتبني كيانها الصناعي بتدريب أبنائها على الخبرة الصناعيـة

النامية في الهند الوطنية • بينما نجد في شوارع دلهي القديمة عربات تجرها ثيران ضخمة تسير ببطء ممل ، كما ينتشر على قارعة الطريق كثير من الدجالين وفاتحي الفال الذين يعيشون خاملين لا يفيدون ولا يستفيدون فيقرؤن الغيب ويتكهنون بالمستقبل للفاشلين وبسطاء الناس الذين حرمهم المستغل من العلم ليفتشوا بضوء نوره على واقع حالهم وليساعدهم على حل مشاكلهم بالعمل المجدى المثمر فظلام الجهل جعلهم يتخبطون في عالم الاشباح ويسرحون مع الخيال ليتهربوا من واقعهم المرير الى عالم الغيب واحلام اليقظة عله يبعث لهم بالمعجزات وفاتهم ان المعجزات لا يصنعها الا الانسان المبدع البناء •

الا أن مما يبعث في النفس الامل وينزل في القلب المسرة هو ان رجال الحكم الوطني المخلصين وعوا هذه النواحي الحيوية الخلاقة فآلوا على نشر الثقافة بين افراد الشعب ورفع مستوى المعيشة تدريجيا وتشجيع الصناعة ، وبذلك أخذ يتقلص ظل الكثير من هذه العادات وبعامل الزمن وتوالي الايام ستذوب ثلوج هذه العقائد •

ولا شك ان الشعب الهندي الذي آمن بحقه في الحياة سيبادر الى بناء مستقبله وحل مشاكله بالعلم والعمل •

جُبالُ هَمَلايا

عزيزتي هيفاء

اليوم طلعت الى جبال هملايا لازور مصيف (مسوري) ولاحقق حلما طالما راودني وأنا أقبع في محلي من بغداد الحبيبة ، يدفعني لذلك حب الاطلاع على ما يمكنني الاطلاع عليه من معالم العالم العجيبة ٠

ولعل حب الاستطلاع هذا كان من الدوافع المهمة لمضاعفة كفاحي في المهنة والصبر على متاعبها ٠

ولكن ما أن أخذت السيارة تكافح بعناد لتجتاز هذه المسالك الجبلية الضيقة التي تحف بها بهجة الطبيعة وتتفاوت طرقها المعبدة من ارتفاع وانحدار ، حتى وجدتني أصارع (هاتفا) يهتف في أعماق نفسي بأسم بلدى ويضغط على عواطفي فيدعوني داعي الشوق الى داري وأولادي ، وكانت كلما تضاعفت مسالك الجبال شموخا وأرتفاعا كلما تضاعفت الدعوة نحوهم قوة والحاحا ورحت أبكي وأنا اتمثل بقول أبن زريق البغدادي :

أستودع الله في بغداد لى قمرا   بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني   صفو الحياة وأني لا أودعه

ومما صبرني على احتمال هذا الصعود الباقة الطيبة من الاصدقاء

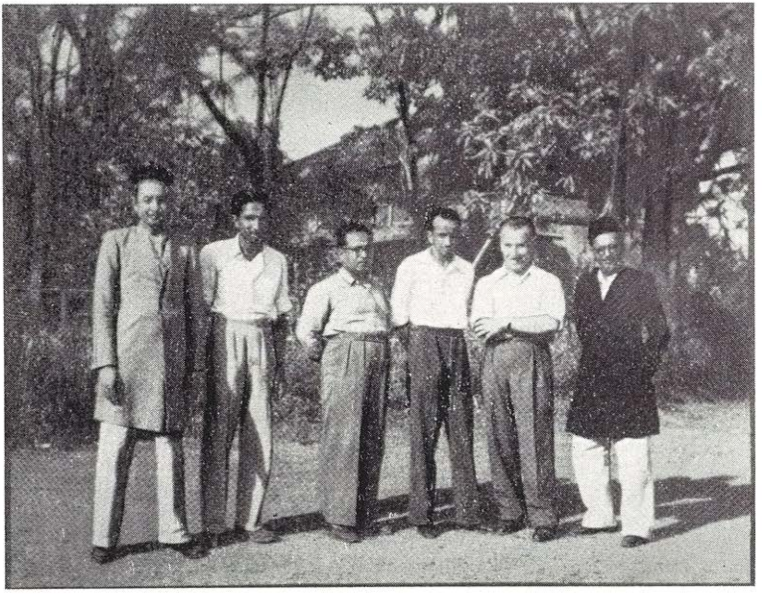
الهنود الذين كانوا يتحسسون سر وجومي وذهولي فيعطرون الجو بعبق عواطفهم وحسن ضيافتهم ومن ابرز صفات الهندي حبه لاصدقائه ووفائه لزوجته وتعلقه بأبنائه فهو في التضحية العائلية كالنحلة في دأبها وصبرها على اداء عملها •

وبينما كانت تتفاعل في كياني ضروب من المشاعر المتباينة كانت سيارتنا تصعد الجبال وتجتاز الوديان واستمر بنا الصعود والهبوط كمجرى أيام حياتنا المتأرجحة بين السعادة والشقاء والراحة والعذاب •

وها أنا أرتقى أعالي الجبال الشامخة المرعبة بمسالكها الملتوية وكنت أخالها جرداء شعثاء لا ماء فيها ولا بشر الا انني وجدتها جنة فيحاء ومصيفا جميلا تتناثر على قممه الفنادق الملونة والقصور الفخمة والحدائق المنسقة •

عزيزتي لقد آوى كل الى غرفته المعدة له وألح علي الشوق للوطن والحنين للابناء فاقلقني نداء قلبي وداعي وجداني فخرجت الى شرفة غرفتي التي شيدت على حافة جبل يطل على واد عميق تحف به خضرة زاهية وتحيط به قمم جبال عالية •

وبينما أنا في وحدتي أصارع هذا التفاعل الانساني اذا بنغم شجي يبدد وحدتي فاتجهت بعيني الى مبعث الصوت فاذا بكنار جميل يتنقل بأعالى شجرة خضراء تغمرها ازهار حمراء قانية لم أر مثلها في بلادي ولا شك أنها جبلية المنبت ، فأخذ ينشد نشيدا عذبا لو اصغيت لذبذبات نغمه لادركت أنه نداء الحبيب للحبيب ولم يكفه هذا التغريد بل راح يطير من شجرة الى أخرى ويهبط تارة الى الوادى الاخضر ثم



المؤلف مع جماعة من اصدقائه الهنود في زيارة لجبـال هملايا

يحلق الى أعلى الجبل وتشعر من تنقله وطيرانه الحائر كأنه يفتش عن شيء ينشده او خليل فقده فقلت لنفسي : ما أصدق الشبه بين حالنـا في هـذا المكـان والزمان بحـال (الشـاعر عبـاس ابن الاحنف) وحمامته الورقاء فلم أجد بيني وبين نفسي خيرا من ترديد (رائعته) لعلها تكون سلوتي في وحدتي :

رب ورقـاء هتـوف في الضحى   ذات شـدو صـدحت في فنن
ذكرت خـلا وعيشـا سـالفا   فبكت حـزنا فهـاجت حـزني
فبكـائي ربمـا أرقهـا   وبكاهـا ربمـا أرقني
ولقـد تشكو فما أفهمهـا   ولقـد أشكو فما تفهمني
غير أني في الجـوى أعرفهـا   وهي أيضـا في الجوى تعرفني

عزيزتي تتقاسمني مشاعر متضاربة في هذا الجو الشاعري وانـا في وحدتي :

وحـدي أقلب ناظريّ هنـا   وأسائل المجهـول أين أنا

أتنقل بالتطلع لجمال الطبيعة الذي خطته ريشة فنان قدير ، ان سر هذا الجمال كامن في تنافر هذه الالوان التي تتلون بها قمم الجبال وسفوحها والتي تضاعف جمالها خضرة الوديان والاشجار وهذا سر جمال الطبيعة التي تعجز ريشة الفنان أن تمزج اصبـاغها وتحـدد أشكالها اذ ستبقى الطبيعة تعبر عن نفسها بنفسها .

عزيزتي : لقد استيقظ أصدقائي بعد القيلولة فحبذوا لي تسلق القمة التي فيها بحيرات متناثرة وشـلالات مبعثرة فسرت معهم وأنا

أتهيب القمم لعلمي بان ليس غريبا ان نبلغ القمـــة وقـــد بلغها غيرنا كثيرون ، ولكن الشعور الغريب الذي خالطني هو كيف نستطيع ان نحفظ توازننا لنحافظ على استقرارنا فسطح القمة ضيق وشاهق فـلا يثبت به الاذو روح مؤمنة وصاحب رسالة في الحياة فلا يركبه الغرور فينحرف ويفقد توازنه فتكون عاقبته الهبوط والويل لمن يهبط من القمة فيكون القعر مستقره اذ كل قمة يناظرها واد سحيق .

ولكن نفس الانسان الطموح لا تستقر على حال فهي تبغي المحال لتحيا في الذرى أو تنام في هوة الرمال فسرت مع الركب الصاعد وكلنا أمل بان سنبلغ القمة ...

نداءُ العودة

شعر

عزيزتي هيفاء

ها انني عزمت على العودة اليك بعد أن فشلت كل محاولاتي لاسكات صرخات عواطفي الطبيعية التي أضحت تلح علي بأن أعود بها الى الوطن الحبيب ، فلا عجب اذا ما اعترفت لك بانني تخاذلت أمام هذه الصرخات المتكررة التي يتجاوب صداها في صحراء كياني الموحش المقفر فينشد ليالي بغداد المرحة بوجودك وحولنا أخوتك نستروح نسائم دجلة ونتفيأ ظلال نخيلها الوارف وكم صبرت نفسي بأن سأعود بها غدا فتناغيني بهذا النشيد .

قالوا اللقاء غدا بمنعرج اللوى   واطول شوق المستهام الى غد

فأضحيت كالطفل الضائع يستصرخ المارة علهم يهدونه لصدر أمه الحنون ، مع ادراك للفارق بيني وبين حظ هذا الطفل من لهفة أمه فأستطيع أن أدرك جيدا وانا على هذا البعد الطويل بانني حالما تطأ قدماي بغدادي الام الحبيبة سوف لا أتحسس تلك اللهفة في حناياها وأكون كحال شاعرنا الذي ردد في عودته :

لي في حنايا الواد أهل ضيعوا   أثري وفي أحشائه لي موطن

فعندها سينتابني الذهول عندما أدرك بأنني ركضت وراء السراب فظننته لشدة عطشي ماء ...

ولكن رغم تأكدي من صحة ما أتوقعه الا انني كانســان عاطفي أراني أضعف من أن استطيع تحمل مثل هذه الوحدة القاتلة والغربة الموحشة فأنا أريد أن احتضن تربــة بلادي وأضم لصــدري ابنائي بعواطف أب عرف مرارة اليتم وقاسى ضغط الحاجة وصبر عليها بلا شكوى ولا لجاجة .

لذا سأعود غدا ...

فما أبغي سوى وطني بديلا فحسبي ذاك من وطن شريف



- حرمته يد القدر العطف الابوي ، فتعلم للضرورة صناعة تصليح الساعات وأضحى يمارسها طيلة الفترة (١٩٣٧ - ١٩٤٧) ؛ وكانت هذه الفترة نواة مستقبله التجاري والدراسي .
- كانت أمنيته العزيزة أن يتوفر على دراسة القانون . وقد نال ليسانس الحقوق عام ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .
- يهوى الاسفار والمطالعة وكتابة القصة القصيرة .
- له كتاب - رهن الطبع - يجمع بين التاريخ والعلم والادب عنوانه « قصة الوقت » .

زنكغراف ومطبعة الرابطة